

عجائب الهند

لبُزرْك بن شهريار

بين الحقيقة والأسطورة

حسن صالح شهاب


مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه .
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

عجائب الهند لبُزُرْك بن شهريار

عجائب الهند لبُزُرْك بن شهريار

بين الحقيقة والأسطورة

دراسة

حسن صالح شهاب

ⓒ هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر
LC DS409.B89 2010

بُزُرْك بن شهريار، الرام هرمزي، القرن العاشر.
كتاب عجائب الهند: بين الحقيقة والأسطورة/ بُزُرْك بن شهريار: [دراسة] حسن صالح شهاب. ـ ط.1.ـ أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، 2010.
208 ص: 14 x 21 سم.
تدمك: 978-9948-01-382-2
1 - الهند- وصف ورحلات. 2 ـ الهند- تاريخ قديم. أ- شهاب، حسن صالح.
ب - العنوان.



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

تصميم الغلاف: أحمد عبدالله التتان

أبوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة
ص.ب: 2380، هاتف: 6215300 2 971+

publication@adach.ae
www.adach.ae

مقدمة

بُزُرْك بن شهريار، النوخذة الرام هُرْمُزي، مؤلف هذا الكتاب، هو – كما يظهر من اسمه – واحد من نواخذة فارس، عاش فيما بين منتصف كل من القرنين: الثالث والرابع من الهجرة. فأقدم تاريخ لحكايات كتابه هو سنة 288، وآخره سنة 342هـ. وخلال هذه الفترة عاصر الأمير أحمد بن هلال، عامل الخليفة العباسي المقتدر بالله (296–322هـ)، على عُمان، فهو يذكره في بعض أحاديثه عمّا حدث في عُمان، لبعض تجار البحر من حوادث، وقضايا، أثناء عودة المراكب من رحلاتها الطويلة إلى عُمان. فخلال هذه الفترة بلغت الملاحة العربية في المحيط الهندي أوج عصرها الذهبي، وكانت الموانئ العُمانية من أولى الموانئ التي تنطحها المراكب القادمة من المحيط إلى الخليج العربي.

وكان من البديهي أن تأتي الأسفار إلى البلدان والجزر البدائية البعيدة، حكايات مصبوغة بصبغة الخيال والمبالغة، عن صفات سكانها، وحيواناتها، وطيورها وأشجارها. فالشيء لا يكون غريباً ولا عجيباً، إذا لم يكن غير مألوف في صفاته وأفعاله، بحيث تصير السلحفاة، مثلاً، كالجزيزة في الكبر، والنملة كالقطة، والحية كساق الشجرة الكبير، والطائر من الضخامة والقوة بحيث يستطيع حمل الإنسان برجليه، والطيران به بين الجزر. وغير ذلك من العجائب الأسطورية، التي نجد حتى بُزُرْك نفسه ينكرها. حيث قال: «وكنت أسمع بأمر السلاحف فأستطرفه، وأنكره، مما لا يقبله عقل[1]». وكان أيضاً يسأل كبار

(1) برزك، كتاب عجائب الهند، برّه وبحره وجزائره (طبعة ليدن) ص 49.

النواخذة، ممن يثق بأقوالهم، عن صحة بعض ما سمعه من الحكايات، مثل حكاية الحيّة التي تأكل الفيلة وتبقي على أنيابها. فقد قال: «وسألت إسماعيلويه عن هذا الحديث في سنة 339، فقال: بلغني، وهو صحيح». وإسماعيلويه، هو – كما سنرى فيما بعد – إسماعيل بن إبراهيم بن مرداس، أحد نواخذة عُمان المشهورين في أيام بُزرك.

فأمثال هذه الحكايات كانت البحارة، وركاب السفينة من التجار وغيرهم يقضون أوقات السمر على متن السفينة في التحدث بها. وكان راوي الحكاية حينئذ يحاول أن يشد انتباه السامعين إليه، بكل ما هو عجيب مستطرف من الحكايات. وهكذا امتزجت الحقيقة بالأسطورة في هذه الحكايات. والعجيب أننا لا نجد في الكتاب حكاية واحدة ينسبها بزُرْك إلى نفسه، رغم أنه كان واحداً من نواخذة البحر وسفّاره.

كما نراه حريصاً على التدقيق فيما ينسبه إلى الرواة من أقوال وأحاديث، من ذلك مثلاً، قوله بأن من دعاه بالعباس بن ماهان: «أخبره عن نفسه، أنه جهّز مركباً من (سندان) أو (صيمور) – الشك مني –[1]». يعني أن الشك في أن العباس جهّز المركب من (سندان) أو (صيمور)، كان من بزُرْك وليس من العباس، فهو لا يتذكر اسم الميناء الذي جهّز منه العباس المركب.

ولا نعني فيما تقدم أن كل ما جاء في الكتاب من العجائب ليس فيه شيء من الحقيقة. فركوب البحر في ذلك العصر على مراكب تسير بقوة الرياح، على بحار ترتادها العواصف الهوجاء، يعتبر حقاً مخاطرة قد لا

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 144.

يسلم منها راكبه. لذلك كان المسافرون فيه قديماً يكتبون وصاياهم قبل ركوبه، ومن سلم بعد تحطم مركبه، ووصل إلى جزيرة غير مأهولة لا يسلم من السباع، أو من أخيه الإنسان. فقد كان الإنسان في كثير من الجزر، والأراضي البعيدة، عن حياة المدينة، يأكل لحم من يقع بيده من البشر. ومن أجل الخروج من مثل هذه الجزر جاءت أسطور (طير الرّخ) وهي الأسطورة التي جعلت الإنسان يفكر في الطيران في السماء.

لكن هناك بين الأساطير في الكتاب حقائق تاريخية لا يمكن إنكارها كاتساع حركة الملاحة العربية، في المحيط الهندي، في عصر مؤلف الكتاب، ومشاهير نواخذتها وربابنتها في عُمان والخليج العربي، واليمن. وصفات البلدان البحرية، التي كانت المراكب العربية تتردد إليها خلال هذه الفترة، وشعوب هذه البلدان وعاداتهم وتجاراتهم، وطرق الملاحة وقواعدها في هذه الفترة.

هذه الحقائق سأحاول التعرف عليها من خلال ما ورد عنها من أحاديث في الكتاب، وعلى ما يثبت صحتها فيما ورد عنها في مصادر تاريخ هذه الفترة، وما عرف عنها لدى الجغرافيين وغيرهم، كحكاية شعب (واق الواق) والملاحة تحت نجم (سهيل)، وفي ظلمات القطب الجنوب، وغيرها من الأحاديث المعقولة. وسأحاول غربلة السليم من السقيم من بقية هذه الأحاديث والحكايات.

والكتاب في جزأين، ولا أدري لماذا لم يفصل بينهما، ففي صفحة 125 يقول بُزرك: «تم الجزء الأول، ويتلوه في الثاني خبر جزيرة (النّيان)،

إن شاء الله تعالى). فما جاء بعد هذه الصفحة يعتبر في الحقيقة من الجزء الثاني من الكتاب.

ولغة المؤلف بسيطة جداً، وتغلب عليها الكلمات والعبارات الشائعة حتى اليوم في اللهجة الدارجة في الخليج، وهي غالباً فصيحة والنسخة المعتمدة في تحقيق الكتاب هي نسخة مكتبة القسطنطينية، وناسخها يدعى محمد القطان، فرغ من نسخها في السابع عشر من شهر جمادى الأولى من سنة 404هـ. ونشرها محققة بي. فان ديرليت، وترجم الكتاب إلى الفرنسية ل. مارسيل دفيك. وطبع بمطبة بريل، ليدن 1883 – 1886م.

ولسهولة الرجوع إلى الحكايات في الكتاب، وضعتها حسب مهن رواتها، في ثلاثة أقسام مع وضع عناوين لها، وترقيمها، وذكر أرقام صفحاتها في الكتاب. وجعلت القسم الأول للرواة من النواخذة والربابنة، والثاني لتجارة البحر وركابه، والثالث لمن لم يذكر بُزرك أسماءهم من رواة حكاياته، مع تنقية السليم من السقيم منها.

أرجو أن أكون قد وفقت إلى ذلك.

وبالله التوفيق...

المؤلف

29–12/2005م



نواخذة وربابنة

1. إسماعيلويه

هو إسماعيل بن إبراهيم بن مرداس، المعروف بإسماعيلويه، أشهر نواخذة عُمان في النصف الأول من القرن الهجري الرابع. له رحلات جريئة، اشتهر بها بين البحارة، إلى جنوب شرقي آسيا، وجنوب أفريقيا، فهو عند بُزرك من نواخذة السفر إلى «بلاد الذهب» و«الزنج». وسجّل له هذه الأحاديث:

من كله إلى عُمان:

«وحدثني إسماعيلويه النوخذة قال: اجتمع لي في كرة واحدة — وردتُ فيها من (كله) إلى عُمان، وذلك في سنة سبع عشرة وثلاث مائة — ما لم يجتمع لنوخذة قبلي: خطفت من (كله) فلقيني في طريقي سبعون بارجة فحاربتهم ثلاثة أيام متوالية، وأحرقت عدة منها، وقتلت جماعة وتخلصت. وقطعت من (كله) إلى أن وصلت إلى (شحر لبان) في أحد وأربعين يوماً، فأخذ السلطان بعُمان من عاشور الأمتعة التي في مركبي ست مائة ألف دينار، وترك على الناس من العشور في بضائع وغير ذلك — مما سامحهم فيه — ما لعله يكون نحو مائة ألف دينار، سوى ما سرق من العشور ولم يوقف عليه، وهذه ثلاثة أشياء اجتمعت في كرة واحدة تتفق، لم تجتمع ولا متفرقة لأحد ورد من هذه الناحية قط[1]».

وقال بُزرك: «وتذاكرنا أمر إسماعيلويه بن إبراهيم بن مرداس فقيل

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 129—130.

لي أنه وصل في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وكان وصوله منذ خطف من (كله) وإلى أن دخل (مكلاّ عُمان) [مطرح] ثمانية وأربعين يوماً[1]».

* * *

(1)
الرحلة من (مسقط) إلى (كله)
في كتاب: «أخبار الصين والهند المنسوب إلى سليمان التاجر»

فبُزرك اعتبر رحلة إسماعيلويه هذه، إحدى العجائب لأسباب ثلاثة حدثت فيها، ولم تحدث مجتمعة في أية رحلة بحرية من قبل وهي:

1. محاربة لصوص البحر والانتصار عليهم.

---

(1) نفس المصدر، ص 132—133.

2. قطع المسافة من (كله) إلى (شحر لبان) [ظفار] في واحد وأربعين يوماً.

3. عشور ما يحمله مركبه من بضائع بلغ ستمائة ألف دينار، وهو أعلى عشور يؤخذ على شحنة مركب من السلع.

وفيما يتعلق بالسبب الأول يبدو أن شعلات النفط، التي أحرقت – كما قال إسماعيلويه – عدة من بوارج لصوص البحر قد أرعبت لصوص البحر، وجعلتهم، رغم كثرة مراكبهم، يبتعدون عن طريقه، ويتوقفون عن اللحاق به. وهذا في حدّ ذاته يعتبر دليلاً على أن المراكب التجارية العربية، كانت في هذا التاريخ تحمل في رحلاتها الطويلة إلى شرقي المحيط الهندي نفّاطين أي رماة شعلات النفط من النّفّاطات، إضافة إلى رماة السهام.

ولم يذكر إسماعيلويه اسم البحر الذي جرت فيه المعركة، لكن القرصنة كانت معروفة في غربي المحيط الهندي، خاصة في بحر العرب وخليج عُمان، قبل ظهور الإسلام. ففي عصر رحلات السفن اليونانية والرومانية من مصر إلى الهند مباشرة، يقول بليني الأكبر (23–79م): إن السفن كانت تحمل رماة للسهام لدفع عادية القراصنة بعد خروجها من مضيق (باب المندب)[1]. وعند ظهور الإسلام كانت سفن قراصنة (الديبل) تقطع طريق مراكب الحجيج الخارجة من الخليج، فقام عثمان بن أبي العاص الثقفي عامل الخليفة عمر بن الخطاب على عُمان،

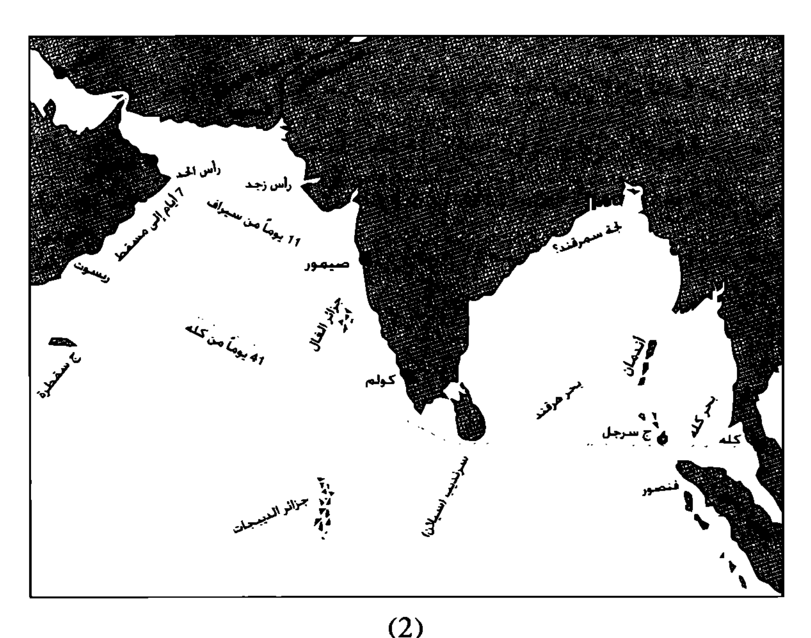
(1) جورج حوراني، الملاحة العربية في المحيط الهندي، ترجمة يعقوب بكر ص 175–176 (مكتبة الأنجلو مصرية – القاهرة).

بتجهيز حملة بحرية، من السفن العُمانية، على خور (الديبل) معقل قراصنة (السند)، ثم وجه حملة بحرية أخرى إلى (تانه) قاعدة قراصنة الهند، وهي جزيرة بجوار (بمباي). وتوقفت قرصنة (الديبل) مع انتشار الإسلام بأرض (السند)، وبقيت القرصنة الهندية، ورغم غارات بحرية عُمان المتكررة على مواطنها بشمال ساحل الهند الغربي في عهد دولة اليحمديين (177–280هـ)، إلا أنها ازدادت اتساعاً وضراوة بعد ذلك، فاتخذت من جزيرة (سقطرة) وكراً لها، تهاجم منه المراكب التجارية القادمة من شرقي الهند إلى البحر الأحمر واليمن، وساحل عُمان الجنوبي.

وبقي ساحل الهند الغربي موطناً للصوص البحر في بحر الهند حتى في أيام ابن ماجد في القرن الخامس عشر الميلادي، لكنهم في هذا التاريخ كانوا من سكان القسم الجنوبي من هذا الساحل، وعلى وجه التحديد: فيما بين (كولم) جنوباً، و(كشي) أو (كشين) شمالاً، ويحذِّر ابن ماجد المسافر من هؤلاء القراصنة ويسميهم (الكات كوري) في السفر من (كاليكوت)، أهم موانئ ساحل المليبار قديماً، إلى جزيرة (سيلان)، حيث قال: «واحذر من (الكات كوري) في تلك الأماكن، فإنهم يأتون هنا في بعض الأحيان. وأما مساكنهم الأصلية فبين (كشي) و(كولم)[1]».

---

(1) أحمد بن ماجد، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خوري (مجمع اللغة العربية – دمشق) .



(2)

رحلة إسماعيلويه

1– من (كله) إلى (شحر لبان) أي (ظفار) 41 يوماً ومن (شحر لبان) إلى (مكلا)، أي (مطرح) 7 أيام الجملة 48 يوماً

2– المسافة من (سيراف) إلى (صيمور) قطعتها المراكب الثلاثة الكبار، التي حطمتها العاصفة، في 11 يوماً.

(انظر الحكاية في فصل العواصف)

أما السبب الثاني، وهو قطع المسافة من (كله) إلى (شحر لبان) في واحد وأربعين يوماً، فاعتبره بُزرك من العجائب، ومن (شحر لبان) إلى (مطرح) سبعة أيام – حسب تقدير بُزرك – فتكون جملة أيام رحلته من (كله) إلى (مسقط) هي ثمانية وأربعون يوماً، وسنرى في

حكاية المخاطرة بين النوخذة محمد بابشاد وربانه في المرسى الذي يتجه إليه مركبه، أن المركب سار بعد خروجه من بحر (هرقند) مباشرة، ستة عشر يوماً إلى (ريسوت) بساحل عُمان الجنوبي، المعروف قديماً بـ(شحرلبان). ومن هناك تسير المراكب عادة سبعة أيام برياح الكوس، أي الجنوبية الغربية إلى (مطرح) بجوار (مسقط)، فتصير جملة أيام سفرها، من خروجها من بحر (هرقند) إلى وصولها إلى (مسقط) أو (مطرح) ثلاثة وعشرين يوماً، فإذا أسقطناها من 48 وهي جملة أيام رحلة إسماعيلويه، من (كله) إلى (مسقط)، تبقى خمسة وعشرون يوماً هي جملة أيام رحلته من (كله) إلى نهاية بحر (هرقند) ودخوله في بحر الهند الغربي. وإذا قارنا رحلته بالرحلة من (مسقط) إلى (كله)، المذكورة في كتاب «أخبار الصين والهند»، نجد أن رحلته أطول في خطوطها الملاحية من الرحلة المذكورة في هذا الكتاب فالعائد من جنوبي الهند لا يستطيع العودة إلى (مسقط) على نفس الخط الذي سلكه من (مسقط) إلى جنوبي الهند، لأنه سيواجه مهب الرياح الشمالية الشرقية فيضطر إلى السير بها إلى الساحل الجنوبي من جزيرة العرب، ومن هناك يسافر إلى (مسقط) – كما ذكرنا – برياح الكوس الموجودة، طوال العام، تقريباً، من رأس (فرتك) شرقاً. ومع أن رحلة العودة إلى (مسقط) من (كله) أطول في خطوطها الملاحية من الرحلة من (مسقط) إلى (كله)، فهي أقصر زمناً من رحلة (مسقط) – (كله) عند صاحب كتاب: «أخبار الصين والهند» فصاحب هذا الكتاب لم يكن – كما يبدو – واحداً من النواخذة أو الربابنة. فتقديره لقطع المسافات تقدير تقريبي، غير محدد

بالأزوام والأيام كتقدير البحارة. وتقديره لأيام الرحلة من (مسقط) إلى (الصين) يجري على النحو التالي[1]:

من (مسقط) إلى (كولم ملي)	30
من (كولم) إلى (كله)	29
من (كله) إلى (صنف فولا)	30
من (صنف فولا) إلى (كانتون)	29
إجمالي عدد الأيام	118

لكن لا هذه الرحلات ولا رحلة إسماعيلويه يمكن مقارنتها برحلات بحارة القرن الخامس عشر الميلادي، كابن ماجد، وسليمان المهري، من حيث المدة. فالمسافة من (كولم) إلى (كله) تقطعها المراكب في شهر قمري أيام سليمان التاجر صاحب كتاب «أخبار الصين والهند»، بينما نجد مركب ابن ماجد يقطها في أقل من سبعة عشر يوماً، فهل كانت مراكب بحارة القرن الخامس عشر أسرع من مراكب بحارة عصر الخلافة العباسية. فمن (كاليكوت) وكانت أهم ميناء بالجزء الجنوبي من ساحل الهند الغربي، المعروف قديماً (بالمليبار) خرج مركب أحمد بن ماجد، في طريقه إلى (ملاقة) بالطرف الجنوبي من الساحل الشرقي لشبه جزيرة (ملاقة) [ماليزيا حالياً]، والتي حلت، أعني (ملاقة)، محل (كله) أو (كلاه)، الميناء القديم الذي يرجح أنه كان بالجزء الشمالي من هذا الساحل وبعد نحو مائة زام وصل المركب إلى جزائر (ناك باري)

(1) الحوراني، الملاحة العربية، ص 219.

أو (نيكوبار)، وهي شرقي جزيرة (سيلان). قال ابن ماجد في قصيدته (المعلقية):

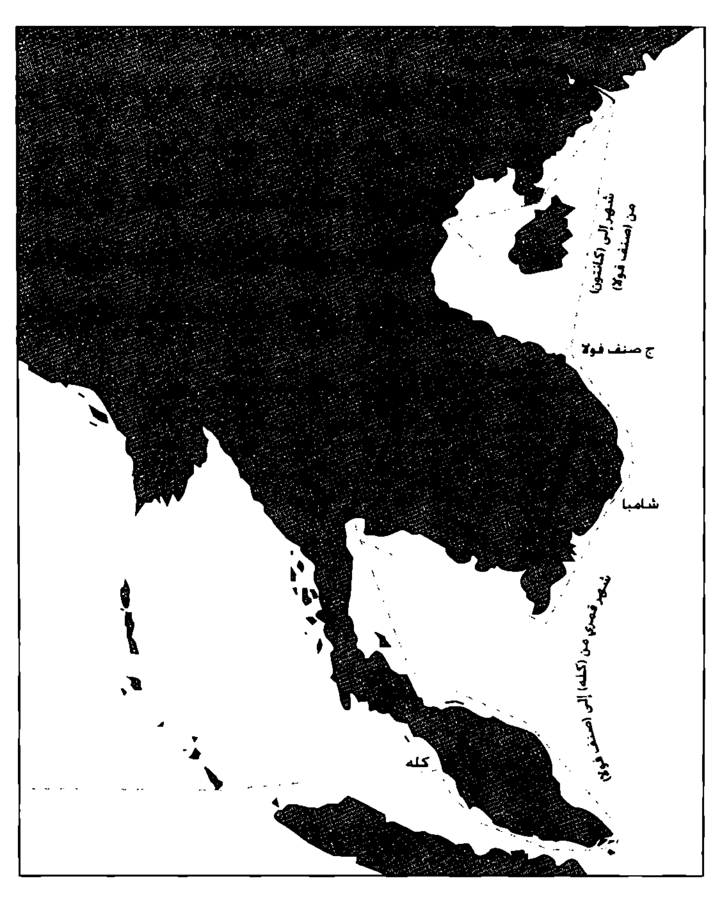
فــإن أزوامــــك الــمـذكـورة قـريـب مـايـة زام هـي مشهورة

من صوب (كاليكوت) لـ(ناك باري) ثــلاث عـشر يــوم في المـجـاري

والزّام الذي يعنيه هو «زام الجَمّة» وبه كانت البحارة تقدّر ما قطعه المركب من الزمن في مسيره، ويقدّر بثلاث ساعات، ونُسب إلى الجَمّة وهي الموضع الذي يتجمع فيه رشح المركب من الداخل، وتنزحه البحارة كل ثلاث ساعات فتصير كل ثمانية أزوام بيوم كامل (3×8=24 ساعة). والمائة زام التي قطعها مركب ابن ماجد من (كاليكوت) إلى جزر (نيكوبار) بحوالي ثلاثة عشر يوماً، والمسافة من هذه الجزر إلى (كله) كانت المراكب في العصر العباسي تقطعها في ستة أيام[1]، فإذا أضفناها إلى الأيام التي قطعها مركب ابن ماجد من (كاليكوت) إلى جزر (ناك باري)، فإن جملتها، وهي تسعة عشر يوماً، تصير جملة الأيام التي كان مركب ابن ماجد سيقطعها إلى (كله) من (كاليكوت). أما من (كولم) وهي أقرب إلى (كله) من (كاليكوت)، فكان بإمكانه أن يصل إليها في سبعة عشر يوماً تقريباً. واستناداً إلى ذلك يمكن القول بأن مراكب أيام ابن ماجد كانت أسرع من مراكب العصر العباسي. إذا لم يكن صاحب كتاب «أخبار الصين والهند»، المتقدم ذكره، يقصد العبور بالموانئ، في الرحلة من (مسقط) إلى الصين..

---

(1) الحوراني، الملاحة العربية، ص 289.



(3)
من (كله) إلى (كانتون)
في كتاب «أخبار الصين والهند»

أما مواسم السفر فلم تتغير، فبالرياح الموسمية الجنوبية الغربية، المعروفة، عند البحار بـ(الكوس)، كانت المراكب تسافر إلى الشرق، والشمال الشرقي من المحيط الهندي، وبحر الصين الجنوبي. وبالرياح

الموسمية الشمالية الشرقية، أو الأزيب، كما تعرف عند البحارة، كانت تسافر إلى الجنوب والجنوب الغربي، وتؤرخ مواسم الرياح وسفر المراكب بأيام النيروز، وهو التقويم البحري عند البحارة العرب وغيرهم، وفي عصر ابن ماجد وسليمان المهري، كانوا يستعملون النيروز الذي يسميه ابن ماجد «النيروز العربي – الهندي»، ويوافق اليوم الأول من سنته اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)[1]، وتحسب سنته بعدد أيامها. أما المتقدمون فلا يذكر عندهم النيروز، وإنما كانوا يؤرخون مواسم الرياح والسفر بطلوع الكواكب الموسمي وغروبها.

ويوافق موسم رياح الكوس، الجنوبية الغربية، من أيام النيروز، عند البحارة المتأخرين، الأيام التالية:

من 140 إلى 330 من النيروز (10 أبريل إلى 8 أكتوبر).

وموسم رياح الأزيب، الشمالية الشرقية:

من 331 إلى 139 من النيروز (19 أكتوبر، إلى 31 مارس).

وتتخل هذه الرياح أحياناً، رياح تعرف بالنكباء، لأنها تميل في مهابها عن مهاب الرياح المذكورة.

وبموجب مهاب هذه الرياح سارت الملاحة الشراعية، طولاً وعرضاً، في المحيط الهندي. فمن (مسقط) كان موسم السفر إلى شرقي المحيط الهندي في أيام ابن ماجد، يوافق الشهر الأخير من موسم الرياح

---

(1) سليمان المهري، العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، تحقيق إبراهيم خوري (مجمع اللغة العربية – دمشق 1970) ص 114.

الشمالية الشرقية، وهو شهر مارس، ومن (سيلان) أو (سرنديب) تسير السفن إلى شرقي بحر (هرقند) بالهبات المبكرة من الرياح الجنوبية الغربية، الكوس، في شهر أبريل، ومايو، ومن (ملاقة) تسافر في مايو بهذه الرياح إلى بلاد (الصنف) و(الصين)، وتبقى هناك، إلى أن يحين موسم الرياح الشمالية الشرقية، فتعود بها إلى الهند، وجزيرة العرب، قبل أن تنتهي السنة على خروجها من (مسقط) إلى شرقي المحيط.

أما الشيء العجيب الثالث في رحلة إسماعيلويه فهو عشور المركب، فقد قال إن سلطان عُمان أخذ ستمائة ألف دينار، عشور ما في مركبه من البضائع وترك للناس من العشور في بضائع أخرى، «ما لعله يكون نحو مائة ألف دينار». ويبدو أن بُزرك استكثر مبلغ العشور، فراح يتذاكره مع غيره من النواخذة، فقيل له إن مركباً آخر ورد إلى عُمان من (سرنديب) في نفس السنة التي ورد فيها مركب إسماعيلويه، وبلغ عشوره ستمائة ألف دينار «لا مركب إسماعيلويه[1]».

غير أن ذلك كان مجرد إشاعة، لم يؤكدها بُزرك، ففي الأحداث والأشياء غير المألوفة، تكثر عادة الإشاعات المتضاربة، إلاّ أن ذلك لا ينفي حقيقة أن عشور المراكب في العصور القديمة كان أضعاف أضعاف عشورها في العصور المتأخرة، فقد كانت قديماً تتاجر بالسلع الثمينة كالذهب والأدماس[2]، وغيره من الأحجار الكريمة، وبالمسك، والعود والعنبر، والعاج، تلك كانت عجائب رحلة إسماعيلويه من

---

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 133.

(2) الأدماس: هو الألماس، وانظر في ذلك ص 191.

(كله) إلى (مسقط).

إسلام ملك سفالة:

وحدثني إسماعيلويه وجماعة من البحريين: أنه خرج من عُمَان في مَرْكبه يريد (قَنْبلة)، في سنة عشر وثلاثمائة فعصفت الريح وطرحت المركب إلى (سفالة) الزنج. قال النوخذة: [يعني إسماعيلويه] فلما عاينت الموضع علمت أنا قد وقعنا إلى بلاد الزنج، الذين يأكلون الناس، فإذا وقفنا في هذا الموضع أيقنا بالهلكة، فتغَسَّلنا وتبنا إلى الله وصلينا على بعضنا بعضا صلاة الموت. وأحاطت بنا الدوانيج فأدخلوا بنا المرساة فدخلنا وطرحنا الأناجر، ونزلنا مع القوم إلى الأرض، فحملونا إلى ملكهم فرأينا غلاماً جميل الوجه من بين الزنج، حسن الخلق، فسألنا عن أخبارنا فعرَّفناه أنَّا قد قصدنا بلده. فقال: كذبتم! أنتم قصدتم (قنبله) غيرنا فحملتكم الريح وطرحتكم في أرضنا. فقلنا: هكذا كان، وإنما أردنا بقولنا التَّقرب إليك. فقال: حطوا الأمتعة وتَسَوَّقوا فلا بأس عليكم. قال: فحللنا الأمتعة وتسوقنا أطيب تسويق، ولَمْ يلزمنا ضريبة ولا مؤنة إلاّ ما أهديناه إليه، وأهدى الينا مثله وأكثر منه، وأقمنا في بلاده شهوراً. فلما حان وقت خروجنا استأذناه، فأذن لنا فحَمَلْنا الأمتعة وفرغنا أمورنا. فلما عزمنا على رواح عَرَّفْناه ذلك، فقام ومشى مَعَنَا إلى السَّاحل مع جماعة من أصحابه وغلمانه، ونزل في الدَّوانيج وسار معنا إلى المركب فصعد هو وسبعة أنفس من وجوه غلمانه، فلما حصلوا في المركب، قلت في نفسي هذا الملك يساوي في عُمَان في

النداء ثلاثين ديناراً، وتساوي السبعة مائة وستين ديناراً، وعليهم ثِيَاب تساوي عشرين ديناراً، قد حصل لنا على الأقل منهم ثلاثة آلاف درهم، ولا يَضُرّنا من هذا شيء، فَصِحْتُ بالبانانية فشالوا الشرع ورفعوا الأناجر، وهو مع ذلك يسلم علينا ويؤنسنا، ويسألنا الرجوع إليه، ويَعِدُنا بالإحسان متى عدنا إلى بلده. فلما رفعت الأشرعة ورآنا قد سرنا تغيّر وجهه. فقال: أنتم تسيرون أستودعكم. وقام لينزل إلى دوانيجه، فقطعنا حبال الدوانيج. وقلنا له: تقيم معنا فَنَحْملك إلى بلدنا ونجازيك على إحسانك إلينا ونكافئك ما فَعَلْت بنا وصَنَعْت. فقال: يا قوم لما وقعتم إليَّ قدرت ثم أن أهلي أرادوا أن يأكلوكم ويأخذوا أموالكم كما قد فعلوا بغيركم، فأحسنت إليكم وما أخذت منكم شيئاً وجئت معكم لأودعكم في مركبكم إكراما مني لكم، فاقضوا حقي بأن تردّوني إلى بلدي. قال: فلم نفكر في كلامه ولم نعبأ به، واشتد الريح فما مضت ساعة حتى غابت بلدته عن عيوننا وظَلَّنَا الليل ودخلنا اللج، وأصبحنا والملك وأصحابه في جملة الرقيق، وهم نحو مائتي رأس، وعاملناه بما نعامل به سائر الرقيق. قال: وأمسك فما أعاد علينا كلمة ولا خاطبنا بشيء، وتغافل عنا كأنه ما عرفنا ولا عرفناه، ووصلنا إلى عُمان فبعناه مع سائر أصحابه في جملة الرقيق.

فلما كان في سنة....[1] عشرة وثلاثمائة خرجنا من عُمان نريد (قَنْبَلُه) فحملتنا الريح إلى سفالة الزنج، ولم نكد أن وردنا ذلك البلد بعينه، ونظرونا فخرجوا وأحاطوا بنا الدوانيج، وإذا الذي نعرفه في

---

(1) ساقط من الأصل.

تلك الكرة، فأيقنا بالهلكة حقيقاً، ولم يكلّم أحد مِنّا صاحبه من شِدّة الرعب، فاغتسلنا وصَلّينا صلاة الموت وتوادعنا، فوافونا وأخذونا فساقونا إلى دار الملك وأدخلونا، وإذا بذلك الملك بعينه جالس على سرير، كأنا فارقناه السَّاعة، فلما رأيناه سجدنا وذَهَبت قوانا، ولم يكن بِنَا حركة للقيام، فقال لنا: أنتم أصحابي لا شك. فلم يستطع أحد مِنّا أن يتكلم، وارتعدت فرائصنا. فقال لنا: ارفعوا رؤوسكم، فقد أمنتكم على أنفسكم وأموالكم، فمِنّا من رفع، ومِنّا من لم يستطع يرفع ضعفا وحياء. قال: فَلَطَف بنا حتى رفعنا رؤوسنا جميعا، ولم ننظر إليه حياء وخوفا وخَجَلاً. فلمّا رجعت إلينا نفوسنا بأمانِهِ. قال لنا: غَدَّارين فعلت لكم وصنعت لكم فكافأتموني بما فعلتم وصنعتم. فقلنا له: أقلنا أيّها الملك واعف عنّا. فقال: قد عفوت عنكم فَتَسَوَّقوا كما كنتم تسوقتم في تلك الكرة فلا اعتراض عليكم. فلم نصدق من السّرور، فظننا أن ذلك على طريق المكر حتى تَحْصل الأمتعة في السَّاحل، فحملنا الأمتعة إلى البر، وحملنا إليه هديّة بمال له مِقْدار، فرده علينا. فقال: ليس مقداركم عندي أن أقبل لكم هدية ولا أحَرِّم مالي بما آخذ منكم، فإن أموالكم كلها حرام. فَتَسَوَّقنا وحان وقت خروجنا فاستأذنا في الحمل، فأذن لنا. فلما عزمنا على الرَّحيل قلت له: أيها الملك قد عاملتنا بما لا قدرة لنا عليه، غَدَرْناك وظلمناك، فكيف خلصت ورجعت إلى بلدك؟ فقال: لمّا بِعْتمُوني بعُمان حَمَلني الذي اشتراني إلى بلد يقال له (البصرة) من صفتها كذا وكذا، وتَعَلَّمت بها الصَّلاة والصِّيام، وشيئاً من القرآن، ثم باعني مولاي لآخر حملني إلى بلد ملك العرب الذي يقال له (بغداد)،

وَوَصف لنا بغداد فتفَصَّحت بتلك البلد وتَعَلَّمت القرآن، وصليت مع النَّاس في الجوامع، ورأيت الخليفة الذي يقال له المقتدر[1] وبقيت ببغداد سنة وبعض أخرى، حتى وافى قوم من خراسان على الجمال، فنظرت إلى خلق كثير، فسألت عنهم في أي شيء جاءوا، فقالوا: يخرجون إلى مكة، فقلت: ومكة هذه ما هي؟ فقالوا: فيها بيت الله الحرام الذي يحج إليه النَّاس، وحدثوني حديث البيت. فقلت في نفسي: سبيلي أن أتبع هؤلاء القوم إلى هذا البيت، فعَرَّفت مولاى ما سمعت، فرأيته ليس يريد أن يخرج، ولا يدعني أخرج، فتغافلت عنه حتى خرج النَّاس. فلما خرجوا تبعتهم وصحبت رفقة كنت أخدمهم طول الطريق، وآكل معهم، ووهبوا إلى ثَوْبين فأحرمت فيهما، وعَلّموني المناسك، فسَهَّل الله تعالى إليّ الحج، وخفت أن أرجع إلى بغداد، فيأخذني سيدي فيقتلني، فخرجت مع قافلة أخرى إلى مصر فكنت أخدم النَّاس في الطريق، فَحَمَلوني وأشركوني في زادهم إلى مصر. فلما دخلت مصر، ورأيت البَحْر الحلو الذي يسمونه النيل. قلت: من أين يجيء. فقالوا: أصله من بلاد الزنج. فقلت: من أيِّ ناحية. فقالوا: من ناحية مصر تسمى (أسوان) في تخوم أرض السودان. فلزمت ساحل النيل أدخل بلدا وأخرج من أخرى، وأطلب من الناس فيطعموني، وكان ذلك دأبي، فوقعت عند قوم من السُّودان، فأنكروني فقيدوني وذهبوا يكلفوني من بين الخدم ما لا أطيق، فهربت ووقعت عند قوم آخرين، فأخذوني وباعوني وهربت، فلم أزل كذلك من خروجي من مصر حتى وصلت إلى البلد الفلاني من

---

(1) المقتدر: هو المقتدر بالله الخليفة العباسي الثامن عشر، تولى الخلافة وهو صبي سنة 295هـ، توفي سنة 322هـ.

أطراف بلاد الزنج، فتنكرت وأخفيت نفسي. ولم أخف على نفسي من حين خروجي من مصر مع ما جرى عَلَيَّ من الأهوال كخوفي لما قربت من بلادي. وقلت: إن بلدي قد جلس فيها بعدي ملك استولى على الملك وأطاعته الجند، ونزع الملك منه صعب عسر، فإن أنا ظهرت أو علم بي أحد حملت إليه فيقتلني أو يجسر بعض المتنصّحين عليَّ فيأخذ رأسي فيتنَصّح إليه به. فداخلني من الرعب ما ضِقْتُ به ذرعا، فكنت أسعى في الليل وأمشي نحو بلدي واختفي في النهار. إلى أن جئت في البحر فركبت مركباً وأنا متنكر إلى بلد كذا، ثم ركبت في البحر إلى بلد كذا، فرماني المركب في اللَّيل إلى ساحل بلدي. فاستخبرت من امرأة عجوز: هل ملكهم هذا الذي جلس عادل. فقالت: والله يا ولدي ما لنا ملك إلاّ الله تعالى، وقَصَّت عليَّ قِصَّة الملك، وأنا اتعجب كأني لا أعلم بذلك، ولا كأني إيَّاه. ثم قالت: اتفق أهل المملكة أن لا يملِّكوا بعده عليهم أحداً حتى يعلموا ما كان من أمره وَيَيْأسوا من حياته، فقد بلغتهم الأخبار من الكهنة أنه بأرض العرب حيّ سالم.

فلما أصبحت مضيت إلى بلدي هذه فدخلتها وأتيت قصري هذا فدخلته، ووجدت أهلي على ما تركتهم غَيْر أنهم مقيمين على بساط الحزن، وأهل دولتي، فأعدت عليهم قِصَّتي فَتَعَجَّبوا وفرحوا ودخلوا معي فيما دخلت فيه من دين الإسلام، فعدت إلى ملكي قبل مجيئكم بشهر، وأنا اليوم فرح مسرور لما مَنّ الله عليّ به وعلى أهل دولتي من الإسلام والإيمان ومعرفة الصَّلاة والصيام والحج والحلال والحرام، وبلغت ما لم يَبْلغه أحد في بلاد الزنج، وعفوت عنكم لأنكم السَّبب

في صلاح ديني، لكن بقي على شيء أسأل الله الخروج من إثمه. قال: فقلت ما هو أيها الملك. قال: مولاي الذي خرجت من بغداد إلى الحج من غير إذنه ورضاه، ولم أعد إليه، ولو لقيت ثِقَةٍ كنت بعثت له ثمني تردّوه عليه، ووهبت عشرة أضعافه بدلا من صَبْره عليّ، ولكنكم أهل غدر وحيل. قال: فودَّعناه. فقال: امضوا فإن رجعتم فبهذه المعاملة أعاملكم وأزيد في الإحسان إليكم، فعَرّفوا المسلمين أن يأتوا إلينا، فإنّا قد صرنا إخوانا لهم مسلمين مثلهم، وأما تَشْيِيْعكم إلى المركب فما لي إليه سبيل فَوَدَّعْنَاه وسِرْنا[1]».

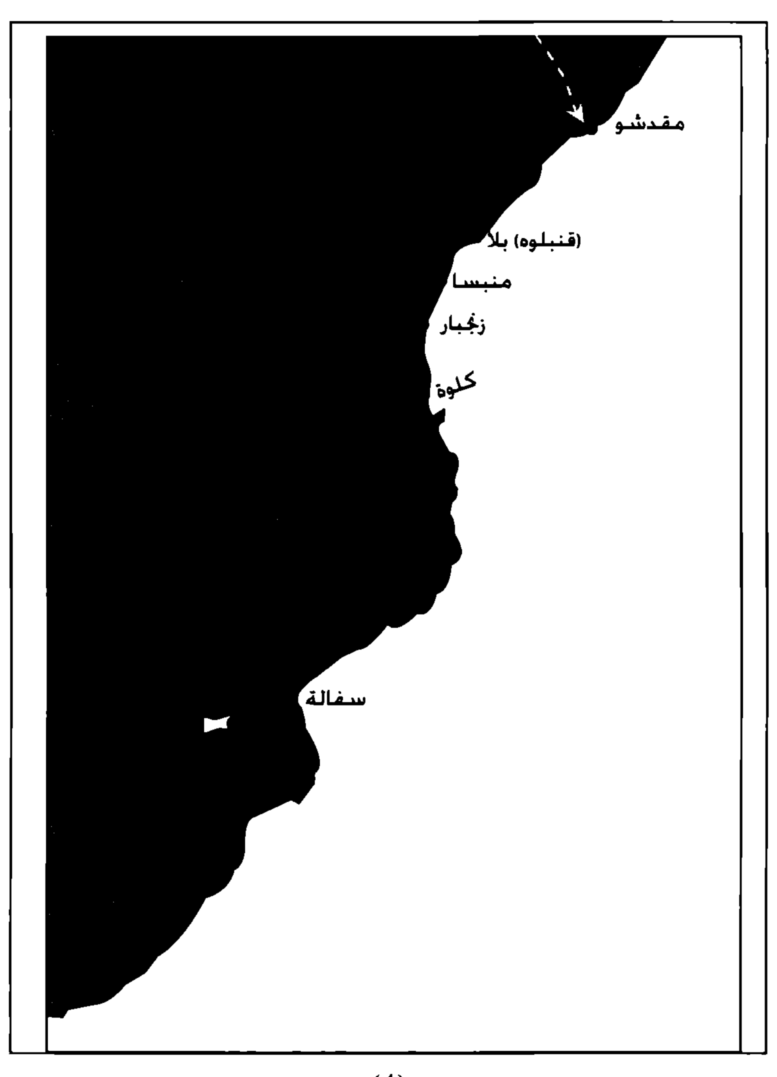
* * *

العلاقة البحرية بين جزيرة العرب والساحل الشرقي من أفريقيا، خاصة حول مضيق (باب المندب)، ترجع إلى بداية ركوب البحر على الأطواف. فحول هذا المضيق يرى الواقف على الساحل العربي أو الأفريقي، جبال الساحل الآخر، وما كان عليه إلا أن يركب رمثاً، أو جذع نخلة حتى يصل إليه. تلك كانت بداية التواصل والهجرات بين الساحلين.

وحتى في عهد بطالمة مصر، ثم الرومان من بعدهم بقي هذا التواصل البحري البدائي جارياً، فقد ورد في كتاب «بريبلس البحر الأرتيري» The Periplus of the Erythrean Sea، أن الأطواف كانت تنتقل بالركاب والسلع بين الساحلين حول هذا المضيق.

---

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 50–60.



(4)

جنوب شرقي أفريقيا في أيام ابن بطوطة
والطريق إلى ميناء (سفالة)

ومع أن تاريخ هذا الكتاب يرجع – على الأرجح – إلى القرن الميلادي الأول[1] فإنه يصف اختلاط العرب بالأفريقيين في أيامه، وكأنه يصفه في الوقت الحاضر. فالعرب – كما قال – «يعرفون جميع الساحل، ويفهمون لهجاته، ويألفون السكان، ويتزاوجون معهم[2]». وأن لهم مستوطنات تجارية تتردد إليها مراكبهم بالتجارة، أقصاها في الجنوب مستوطنه تدعى (ربطه) Rhapta، وهي على مسيرة خمسة عشر يوماً، من (أوبون) Opon بالبحر وهي (حافون) فبريبلس يذكرها بعد (رأس التوابل) أي رأس (غرد فوي)، أما (ربطه) فتقدير بريبلس للمسافة بينها وبين (أوديون) يجعل موقعها قريباً من (لامو) بالطرف الشمال من ساحل كينيا). فهذه المسافة تزيد على ضعف المسافة من رأس (غردقوي) إلى (زيلع) بالطرف الغربي من ساحل الصومال الشمالي، والتي بمسيرة ستة أيام بحراً. فموقعها إن صح هذا التقدير، غير بعيد عن موقع (بات) أو (باتا) بالطرف الشمالي أيضاً من ساحل (كينيا). وقال بريبلوس إن عرب اليمن يحكمون (ربطه) Rhabta، ويرسلون إليها مراكب عليها وكلاء وربابنة من العرب[3]. وفي خريطة لبطلميوس تقع (ربطه) بساحل (تنزانيا)، مقابلة لجبال القمر حيث منبع النيل، وفي موقع (كِلْوَا) على هذا الساحل.

ويلاحظ أن هذه المستوطنات التجارية كانت على الجزر المجاورة للساحل، ولم تنشأ واحدة منها على البر الرئيس، خاصة جنوبي الساحل

(1) Periplus, p. 13.

(2) Ibid p. 28.

(3) The Periplus

الصومالي. خشية أن تهاجمها قبائل البر الداخلي وتنهبها. وتابعت هذه المستوطنات انتشارها جنوباً، مع مرور الزمن، حتى وصلت إلى (سفالة). وهو اسم أطلقه البحارة العرب – كما يبدو – على السفلى من الموانئ، أي الجنوبية، من ساحل أفريقيا الشرقي، كساحل (موزمبيق) وما يليه جنوباً. فكان ميناء (سفالة) على هذا الساحل يستقبل الذهب الذي ينقل إليها من مناجم في البر الداخلي من مملكة كانت تعرف مملكة (بنامتابا) Benametapa. وهذه المناجم مازالت آثارها باقية إلى اليوم فيما تعرف الآن ببلاد (زيمبابوي)، أو (روديسيا) سابقاً[1].

أما حكاية إسماعيلويه المتقدمة فأول ما يؤخذ عليها، أن هذه المستوطنات كانت – كما ذكرنا – مستقلة عن البر الداخلي، حتى حين وصول البرتغاليين إليها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، وكانت تعرف ببلاد السواحليين، وهم من المسلمين غالباً، المولدين من أصول عربية وفارسية. وكان بعضهم يحارب سكان البر الداخلي[2].

والمأخذ الثاني هو تكرار الخطأ في طريق معروف لدى النواخذة فمثل هذا الخطأ، إن حدث سيفقد النوخذة ثقة ركاب البحر في كفائته كنوخذة، وبالتالي سيفقد عمله.

أما اختطاف السكان الأصليين وحملهم على ركوب السفن فكان يجري، غالباً، بالحيلة والغدر. وكانت أسهل طريقة لحملهم على ركوب السفينة هي تقديم التمر لهم، فإذا صعدوا إلى ظهر السفينة، أنزلوهم إلى

---

(1) B.Dauidson, The African Past, pp. 134-141 (Penguin)

(2) B. Dauidson, The African Past pp. 134-141.

أحد عنابر السفينة وقدموا لهم مزيداً من التمر، أشهى المأكلوت لديهم. وتكون السفينة تستعد للاقلاع. وكان اختطاف السكان الأصليين من الأفريقيين بهذه الطريقة شائعاً في مراسي هذا الساحل، على يد نواخذة السفن، ويجري بيعهم على تجار الرقيق في السفينة، أو في أسواق بيع الرقيق في الموانئ.

ومع أن تجارة الرقيق كانت قديماً مباحة عند جميع الشعوب والأديان، فإننا نجد أن تحرير رقبة من العبودية في الإسلام، هي إحدى الكفارات من الآثام. وكان انتشار الإسلام في شرقي أفريقيا على يد السواحليين، وهم - كما ذكرنا - المنحدرون من أصول مسلمة، كما شارك في نشره من عاد إليه مسلماً من المعتوقين.

ولم تذكر (سفالة) عند بُزرك أنها ميناء بلاد الذهب، لكن ابن بطوطة زار بلاد السواحل في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، بعد نحو نيف وأربعة قرون من تاريخ رحلة إسماعيلويه هذه، وقال إن بعض التجار ذكر له «أن مدينة (سفالة) على مسيرة نصف شهر من مدينة (كلوا)، وأن بين (سفالة) و(يُوفَى) من بلاد الليميين مسيرة شهر، ومن (يوفَى) يؤتى بالتبر إلى (سفالة)»[1]. وبلاد الليميين هي ما كانت تعرف باسم (روديسيا) أيام الاستعمار البريطاني (انظر الخريطة 5).

---

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ج 1 ص 163 (الطبعة الأولى - القاهرة).

قافّة الزنج:

وقيل: أن ببلاد الزنج القافّة الكهنة، قافّة حُذّاق فهماء. وحدثني إسماعيلويه عن بعض النواخذة أنه قال له: دخلت بلاد الزنج في سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة. فقال لي بعض القافة: كم أنتم مركباً؟ فقلت: ستة عشر مركباً، فقال: يسلم منها إلى عُمَان خَمْسة عشر مركباً وتنكسر واحدة ويسلم منها ثلاث أنفس، وتَمْضي عليهم شدة عظيمة ويَتَخَلَّصون إلى....[1]. قال: فخرجنا كلنا في يوم واحد، وكنت آخر من خرج منهم، فأغذذت السير لألحق من خرج منهم أولا، فلما كان في اليوم الثالث رأيت من بُعْد مثل الجزيرة السوداء، فَلِرَغْبَتِي في السرعة لم انقض الشِّراع لأعدل عنها، لأنَّ السَّير في ذلك البحر شديد جدا، فما كدت أن أصل إليها فإذا هي دابة من دواب البحر، فلما لمست المركب ضَرَبْته بذنبها فانكسر، فسلمت أنا وابني والكارين في الدونيج، ووقعنا على بعض جزائر الديبجات فأقمنا بها ستة أشهر، إلى أن أمكننا الخروج ووصلنا إلى عُمان بعد شدائد عظيمة مَرَّت بنا[2]».

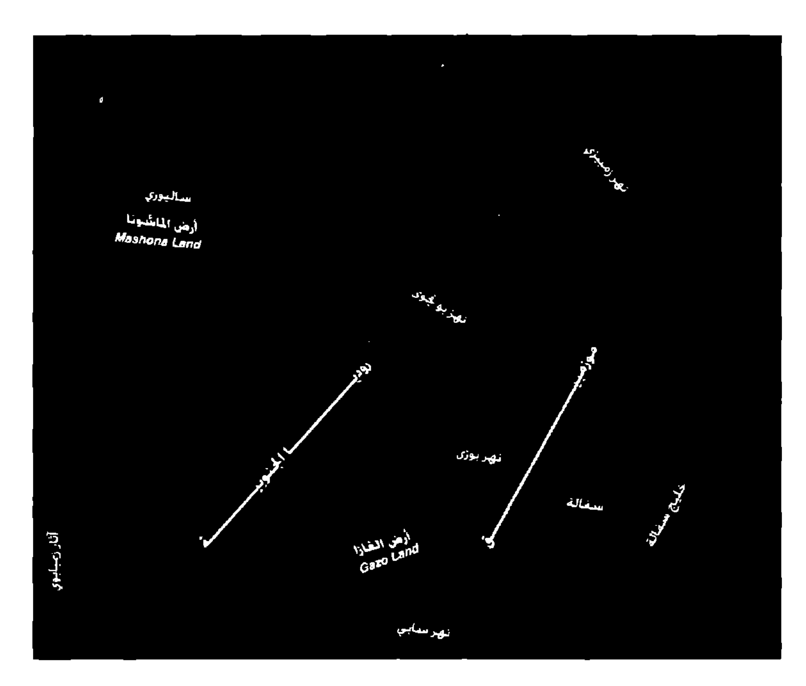
* * *

«القافة الكهنة» هم أدعياء النظر في علم الغيب من الدجالين والمشعوذين المنتشرون حتى الآن في القرى الأفريقية، بين الأدغال. ويبدو أن البحارة العرب كانوا قديماً يلتقون في بعض الموانئ هؤلاء القافة ويصدقون أقوالهم.

---

(1) موضع النقط ساقط من الأصل.

(2) بُزرك، عجائب الهند، ص 60-61.



(5)
(سفالة) أيام الاحتلال البرتغالي والبريطاني

ونلاحظ كذلك أن خروج السفن الشراعية في مجموعات مترافقة، كان تقليداً قديماً، فرضته أحوال الطقس والمجاري في مياه المحيط بعيداً عن البر. وتتقدم سفينة أفضل ربّان بقية سفن المجموعة، وتسمى سنجاراً. قال ابن ماجد:

إذا كنت في السنجار فالكل يهتدي   بنور علومي كالسماكين في السما

وجزائر (الديبجات) هي جزائر (مالديف) في الوقت الحاضر، وكانت تسمى عند البحارة، في أيام ابن ماجد، وسليمان المهري

(الذيبة) و(الذيبيات). ونطق الجيم ياء شائع في الخليج وحضرموت.

ذهب الزنج:

«وحدثني إسمعيلويه النوخذة: أن بأعلى بلاد الزنج معادن الذهب وهي خوّارة - وأكثر المعادن خوارة، وأن الرِّجال يحفرون فيها لطَلَب الذهب فربما نقبوا على أرض ممخرقة، مثل أرض النمل، فيخرج عليهم نمل مثل السَّنانير كثير، فيأكلونهم ويقطعونهم قطعاً. وقد كان أحمد بن هلال أمير عُمان حمل في سنة ست وثلاثمائة في جملة هَدية حَمَلها إلى المقتدر، نَمْلة سوداء في قَفص من حديد مشدودة بسلسلة في قَدْر السنّور، وماتت هذه النملة في الطريق بناحية ذي جبلة فجعلت في الصَّبِر وحملت إلى مدينة السَّلام صحيحة، ورآها المقتدر وأهل بغداد، وذكروا أنهم كانوا يطعمونها كل يوم منوين شرائح غدوة وعشية[1]».

* * *

«أعلى بلاد الزنج»: يقصد برّ (سفالة)، فمعادن الذهب في أعالي هذا البر، حيث توجد آثار التنقيب عنه - كما ذكرنا - في (زيمبابوي) حتى اليوم. وقوله إن الأرض التي يوجد بها معدن الذهب كانت خوارة، أي لينة، لأنها مخرقة ببيوت النمل. والمقتدر بالله هو الخليفة العباسي الثامن عشر.

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 65.

سرطان يمسك أنجر مركب إسماعيلويه:

«وحدثني اسماعيل بن إبراهيم بن مرداس النوخذة: وكان من بقية نواخذة بلاد الذهب، وهو المعروف بإسماعيلويه ختن أشكتين: أنه في بعض سفراته إلى بلاد الذهب، كان قريباً من البر بقرب (لامري) ولِعَيْب لحق المركب احتاج أن يمسك المركب فإنه رمى بالأنجر الكبير في البحر، فلم يقف به المركب ومضى على حاله، فلم يعرف السبب في ذلك، فقال للغائص: تنزل مع حبل الأنجر وتعرف خبره، وأن الغائص لما أراد النزول نظر وإذا الأنجر بين ظفري سرطان وهو يجرّ المركب ويلعب بالأنجر، فأنهم صاحوا وطرحوا في الماء الحجارة ورفعوا الأنجر ثم طرحوه في موضع آخر وإن وزن الأنجر ستمائة منّ[1] أو أكثر[2]».

* * *

(لامري): جزيرة عند الجغرافيين القدماء، في خليج (البنجال)، في موقع جزيرة (سمطرى).

(1) المنّ: معيار قديم يكال به ويوزن، ويقدر بنحو رطلين بغدادي.

(2) بُزرك، عجائب الهند، ص 65.

2. ابن لاكيس

هو النوخذة جعفر بن راشد المعروف بابن لاكيس، صنّفه بُزرك من نواخذة بلاد الذهب، أي من النواخذة المترددين غالباً إلى بلاد الذهب، وليس من أهل بلاد الذهب، التي تذكر عند بُزرك في الهند شرقاً، وتعرف بأرض (تاكا)[1]. ولا يعني حينما يقال أنه ناخوذة بلاد الذهب، أو غيرها، أنه لا يعرف غيرها من البلدان في سفراته. فجعفر ابن راشد، وهو من نواخذة بلاد الذهب، نجد له رحلات إلى أرض الزنج، أو (السواحل)، وحكايات عنها، في كتاب بزُرْك هذا. وهو من معاصري بُزرك، وآخر سنة تذكر في أحاديثه هي سنة 340هـ.

أهل الوقواق:

«وحدّثني ابن لاكيس: أنهم شاهدوا من أمر أهل (الوقواق) ما يدهش، وذلك أنهم وافوهم في سنة أربعة وثلاثين وثلاث مائة في نحو ألف قارب، فحاربوهم حرباً شديداً ولم يقدروا عليهم، لأن حول (قنبله) حصن وثيق وحول الحصن خور فيه من ماء البحر و(قنبله)، في ذلك الخور مثل القلعة الحصينة، وأنه وقع إليهم قوم منهم فسألوهم عن مجيئهم إليهم دون سائر البلاد فذكروا: أنهم إنما جاءوهم لأن عندهم من الأمتعة ما يُصْلح لبلادهم والصِّين، مثل العاج والذبل والنمور والعنبر، ولأنهم يريدون الزنج لصَبْرهم على الخدمة وجَلَدهم، وأنهم جاءوهم من

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 43.

مسيرة سنة، ونهبوا جزائر بينها وبين (قنبله) مسيرة ستة أيام، وظفروا بعدّة قرى ومدائن من (سفالة) الزنج، ما عُرف خبره سوى ما لم يعرف، فإذا كان قول هؤلاء وحكايتهم صحيحة أنّهم جاءوا من مسيرة سنة، فهذا يدلّ على صحّة ما ذكره ابن لاكيس من أمر جزائر الوقواق، وأنها قبالة الصين، والله أعلم[1]».

* * *

وقال بُزرك: «وقد حكى لي قوم: أنهم رأوا من دخل الوقواق واتّجر، فوصف سعة البلاد والجزائر – وليس أعني بسعة البلاد أن البلدان كبار ولكن أهل الوقواق كثير – وفيهم مشابهة من الترك، وهم أحذق خلق الله بالصنائع، ثم إنه يتخرج في جميعها وهم أهل مكر وحيل وخديعة وخبث وشدّة بأس في كل شيء[2]».

* * *

من المسائل التاريخية التي لم يعرف لها حل، مسألة أهل الوقواق، فحتى الآن لم تجد هذه المسألة – للأسف – من يدرسها، ويجلو حقيقتها، الأمر الذي يجعل الاعتقاد بأن أهل الوقواق من الشعوب الأسطورية أمراً محتملاً، عند من يطلع على ما روته البحارة وتجار البحر، من الحكايات عنهم، كحكايات كتابنا هذا.

ولا نجد عنهم في غير هذا الكتاب سوى اسمهم المجرد، وأخبار

---

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 174–175.

(2) نفس المصدر ص 174.

ملفقة بعيدة عن الحقيقة. وقد لاحظ ابن الفقيه الهمداني صاحب «مختصر كتاب البلدان» (902م)، فيما روته البحارة من حكايات عنهم، أن هناك (واق واقين) حيث قال: «وواق واق الصين هم بخلاف واق واق اليمن[1]».

و(واق واق اليمن) يقصد بهم (واق واق) الجنوب أي شرقي أفريقيا إلى الجنوب من اليمن، وموطنهم في خريطة الشريف الإدريسي بأقصى جنوب أفريقيا. أما موطنهم في حكاية ابن لاكيس المتقدمة، فيقابل بلاد الصين، من جهة الغرب.

فمن هم (واق واق) اليمن؟ ومن أين، ومتى جاءوا إلى شرقي أفريقيا، وأين استقروا فيه؟

أسئلة لا توجد لها أجوبة محددة ثابتة! لكن هناك شواهد قليلة يمكننا أن نستخلص منها الإجابات التقريبية على هذه الأسئلة، وأولها من حيث الأهمية، ما ذكر عن صفاتهم الجسمانية، فهم بيض الأجسام، «وفيهم مشابهة من الترك». فهذا الوصف يثبت أن الوقواقيين هم جنس غير أفريقي. والعجيب أن هذا الوصف للون البشرة عند الوقواقيين نجده عند ابن ماجد للون بشرة أجسام من أسماهم بذرية سيف بن ذي يزن، ملوك بلاد (الكانم)، حيث قال في وصف ساحل جنوب أفريقيا الشرقي: «فإذا بلغت ذلك المكان انحازت جزيرة (القمر) عن يسارك، وانقطع البر عن يمينك، ودار للمغارب والشمال، وهناك صحارى وبحور خارجات، أول الظلمات، إذا نزلت الشمس بالسرطان، فيرجع

(1) حوراني، الملاحة العربية في المحيط الهندي، حاشية للمترجم ص 231.

البر من هناك إلى بر (الكانم)، الذي تملكه ذرية سيف بن ذي يزن، وهم أقوام بيض على جنوبي السودان، لبعد الشمس عنهم للشمال. كبياض الترك لبعد الشمس عنهم للجنوب[1]».

يقول ما معناه: إذا وصلت إلى آخر الساحل الجنوبي الشرقي من أفريقيا، ومالت عن يسارك جزيرة (القمر) أي (مدغشقر)، وانقطع البر عن محاذاة يمينك، وأنت تسير نحو الجنوب، ودار إلى جهة الغرب والشمال، فهناك أول ظلمات القطب الجنوبي، حينما تصير الشمس في مدار (السرطان) بأقصى الشمال، ومن هناك يتجه الساحل إلى بر (الكانم) الذي تحكمه ذرية سيف بن ذي يزن. وهم بيض الأجسام لبعد الشمس عنهم للشمال كبياض الترك لبعد الشمس عنهم للجنوب.

وأول ما نلاحظه على أقوال ابن ماجد، أنه يجعل بلاد (الكانم) بأقصى جنوب أفريقيا، وتحت مدار أول ظلمات القطب الجنوبي، الأمر الذي كان سبباً – كما قال – في بياض سكانها من ذرية سيف بن يزن ملك اليمن، بينما نجدها عند الجغرافيين العرب. ومنهم أبو الفداء صاحب كتاب «تقويم البلدان»، بالجانب الغربي من أفريقيا، فيما يعرف بأفريقيا الوسطى في الأطلس. ومع أنه يذكر أن حكامه من ذرية سيف بن ذي يزن، إلا أنه لم يذكر أنهم كانوا بيضاً كالترك، ولا نعلم المصدر الذي أخذ عنه ابن ماجد هذا الوصف لبياض ذرية سيف بن ذي يزن، والذي يشبه بياض أهل واق الواق.

وإلى جانب بياض البشرة، كان واق واق اليمن من الشعوب

(1) ابن ماجد، كتاب الفوائد، ص 273.

المتحضرة آنذاك، فهم كما قال بُزرك: «أحذق خلق الله بالصنائع». من المحتمل أنهم سُمّوا عند البحارة العرب بالواقواقيين لغلبة نبرة القاف في لغتهم. والغريب في حديث النوخذة ابن لاكيس أن الواقواقيين أتوا إلى (قنبلو) في قوارب (دوانيج) قدّر عددها بنحو ألف قارب، ولم يأتوا في مراكب، وهذا يثبت، بشكل قاطع، أنهم ساروا بحذاء الساحل ولم يقطعوا عرض البحر في طريقهم من أرض (الواقواق) إلى ساحل أفريقيا الشرقي. فالقارب يكون أسرع من المركب في الأماكن الضيقة، بجوار الساحل والاستدارة حول الرؤوس، والمضاحل التي تكثر غالباً بجوار الساحل. أما تقدير قطع الرحلة من (الواقواق) إلى (قنبلو) بسنة واحدة بقوارب فغير معقول، وإن صح قول النوخذة ابن لاكيس أن أرض (الواقواق) تقابل أرض (الصين) من الغرب، وأن الواقواقيين ربما استداروا في قواربهم حول ما يعرف برأس (الرجاء الصالح) وساروا بحذاء ساحل أفريقيا الشرقي. وبذلك يكون الاعتقاد بأن أحداً لم يعبر حول هذا الرأس قبل (فاسكو داغاما) غير صحيح.

ولو أن الواقواقيين جلبوا إلى (قنبلو) سلعاً غير أفريقية لثبت أنهم جاءوا من خارج أفريقيا، ولكنهم – كما رأينا – جاءوا بسلع كلها أفريقية. فهل جاءوا من إحدى الممالك، التي ازدهرت واتسع سلطانها في غربي أفريقيا، عقب انتشار الإسلام هناك، مثل مملكة (الكانم) و(مالي) و(غانا)؟.

وكانت (الكانم) أكبر هذه الممالك وأوسعها سلطاناً، فقد بلغت حدودها جنوباً إلى بحيرة (كوري). «وهي بحيرة على خط الاستواء،

ويخرج منها نيل مصر شمالاً[1]. وشمالاً إلى مصر، والصحراء الكبرى حتى (فزّان) من ليبيا. وغرباً من النيل إلى حدود مملكة (غانا)، التي كانت تشمل أيضاً ما يعرف اليوم بـ(نيجيريا)، وشرقاً نهر النيل والحبشة.

ونلاحظ أن حدود مملكة (الكانم) الجنوبية قد وصلت إلى بحيرة (كوري) التي حوّل اسمها المستعمرون البريطانيون إلى بحيرة (فكتوريا). وهي الآن داخلة في حدود ثلاث دول هي: (أوغندا) من الشمال والغرب. و(كينيا) من الشرق، و(تنزانيا) من الجنوب. وكانت (أوغندا) خاضعة لسلطان مملكة (الكانم). و(جاجة) أو (جيجة)، كرسي ملكها القديم بجوار (كمباله) عاصمتها في الوقت الحاضر من جهة الشرق، «وكان في شرقيها على ركن بحيرة (كوري) دار صناعة سلطان الكانم، و(المعزا) مدينة مشهورة[2]».

فبحيرة (كوري) ليست بعيدة عن ساحل (كينيا) و(تنزانيا) ولهذا السبب من المحتمل جداً أن سلطان (الكانم) اختار مدينة (المعزا) وهي على شاطئ البحيرة الشمالي قريباً من الجزء الشمالي من ساحل (كينيا)، حيث كان ميناء (بتّا) أو (بطّا)، لتكون مقراً لدار الصناعات التي اشتهرت بها في القرون الوسطى. ومملكة بوسع مملكة (الكانم) في ذلك العصر، من المستبعد جداً، ألاّ تكون لها علاقة تجارية مع موانئ ساحل أفريقيا الشرقي. والذين حاولوا السيطرة على (قنبلو) من الواقوقيين، كانوا يريدون أن يجعلوا منها – كما قال النوخذة ابن لاكيس – ميناء

(1) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 38.

(2) نفس المصدر ص 162.

لهم يصدرون منه إلى الصين ما لديهم من العاج والعنبر والنمور، وغيرها. ويريدون رقيقاً من الزنج، يعني من سكان ساحل أفريقيا الشرقي «لصبرهم على الخدمة وجلدهم».

ولولا قول ابن لاكيس في وصف الواق واقيين بأن «فيهم مشابهة من الترك لجاز اعتبارهم من الأفريقيين. والعجيب أن نجد هذا الوصف عند ابن ماجد – كما رأينا من قبل لسكان (الكانم)، وأن بياضهم سببه – كما قال – «بعد الشمس عنهم للشمال، وبياض الترك لبعد الشمس عنهم للجنوب. فهو يجعل الطرف الجنوبي من أفريقيا تابعاً لمملكة (الكانم).

طير رخ سفالة الزنج:

«وحدّثني ابن لاكيس: أنه كان بـ(سفالة) عند بعض ملوك الزنج، إذ جاءه رجل، فقال له: أيها الملك إن فرخا من فراخ طيور كذا – ونسى ابن لاكيس اسم الطير – قد وقع في الغوطة الفلانيّة، وكان قد اقتنص فيلا وكسره وهو يأكل فيه، وقد صِيْد. فقام ملك الزنج وخرج إلى الغوطة ومعه خلق كنتُ أنا فيهم، فوقفنا على الطائر وهو يضطرب، والفيل مطروح قد أكل منه نحو رُبعه، فأمر الملك بأخذ ريش جناحيه فإذا بالكبار منها اثنتا عشرة ريشة، في كل جناح ستّ، وأخذ من ريشه شيئاً غير ذلك، وأخذ منقاره، وشيئاً من مخاليبه، وشيئاً من جوفه، وحمل معه، وكان في ذلك الريش الذي أخذ شيء قُطع أسفله، وكان يسع

قربتي ماء أو أكثر، وحكوا أنه من فراخ طيور تكون بسفالة الزنج، وأنه اجتاز بالغوطة، فرأى الفيل فأخذه بمخالبه ورفعه إلى الهواء، ورمى به فقتله، ثم نزل عليه فأكله، وأحسّ به قوم كانوا هناك فأثخنوه بالسهام المسمومة والحراب حتى صرعوه وقتلوه[1]».

* * *

رغم أن بُزرك اعتبر جعفر بن راشد، المعروف بابن لاكيس، من نواخذة بلاد الذهب، وهي عنده - كما رأينا - شرقي الهند، فإن ما رواه من الحكايات، عن ابن لاكيس، كله قد حدث في شرقي أفريقيا، وليس بينها حكاية عن شيء حدث في الهند.

ويقصد بـ(سفالة الزنج) الأرض التي تشمل اليوم كلاً من (موزمبيق) و(زمبابوي) و(زامبيا)، فعلى هذه الأرض ظهرت عدة مناجم للذهب، وقامت عدة ممالك، ولا يقصد بـ(سفالة) الميناء، فهذه كانت بيد السواحليين، المولدين من أب عربي وأم أفريقية، وتسكنها التجار من العرب وغيرهم.

أما طائر الرخ فكان من الطيور الضخمة المنقرضة، وليس طائراً خرافياً، كما نرى في بعض معاجم اللغة. وإذا تركنا المبالغة المفرطة في وصف حجمه وقوته، فيما تروى عنه من الحكايات، فإن هناك من هذه الطيور ما يمكن اعتباره مثالاً للصغير منها، كذلك الطائر الذي يصيد حتى القرد الكبير ويحمله بمخالبه في غابات أندونيسيا، وهو اليوم -

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 178-179.

للأسف – في طريقه للانقراض، إن لم يكن فعلاً قد انقرض[1].

بحر صفيو:

«وقال لي ابن لاكيس: أن بين (بثينة) وجزيرة (الغيلمي) بحراً صغيراً يقال له بحر (صفيو) طوله مسيرة ستة أيام، ويحتاج المركب إذا سلكه أن يأخذ ماء ثلاثين باعاً، فإنه إن كان في عشرين باعاً غاص، وذلك أن في هذا البحر وَحَلاً رقيقاً إذا وقع فيه المركب أتلفه، وقليل أن يسلم منه أحد[2]».

* * *

واستمر ابن لاكيس في حديثه عن أرض (سفالة الزنج)، فقال لبُزرك إن بين (بثينة) وجزيرة (الغيلم) بحراً مملوءاً بالرواسب الطينية التي تدفع بها الأنهار إليه، ويصل ارتفاعها في البحر إلى عشرين باعاً. فإذا جرى المركب، وعمق البحر تحته عشرين باعاً وقع في هذه الرواسب، لذلك كانت المراكب لا تجري في هذا البحر إلاّ على عمق ثلاثين باعاً. ويسمى هذا البحر (بحر (صفيو).

وكانت (بثينة) على ساحل (سفالة الزنج) أو ما يسمى اليوم بـ(موزمبيق) وجزيرة (الغيلمي) أو (الغيلم)، وهو ذكر السلحفاة،

---

(1) شاهدت هذا الطائر قبل نحو ثلاثين سنة من تاريخ مقدمة هذا الكتاب في أندونيسيا، ولا أتذكر الآن اسمه.

(2) بُزرك، عجائب الهند، ص 179.

بحذاء الساحل. ونلاحظ عند الجغرافيين العرب، أن معلوماتهم عن (سفالة الزنج) أوسع من معلوماتهم عن بقية أراضي ساحل أفريقيا الشرقي، ويرجع ذلك إلى أن التجار المترددين في أسفارهم إلى (سفالة)، كانوا أكثر من المسافرين إلى غيرها على هذا الساحل، فالجغرافيون كانوا ينقلون معلوماتهم الجغرافية، غالباً، عن مثل هؤلاء التجار. وكان وجود مناجم الذهب في (سفالة) هو سبب كثرة المسافرين إليه.

قال أبو الفداء، نقلاً عن كتاب «القانون»: «و(سفالة) من الزنج وأهلها مسلمون، وهم جنوبي خط الاستواء»، وعن ابن سعيد: «وأكثر معايشهم من الذهب والحديد، ولباسهم جلود النمور[1]».

وقال: «ومن مدن سفالة (بتينة)[2] وهي ذيل جون عظيم يدخل في البر، وفي غربي (بتينة)، داخلاً في الشمال والمشرق عجرد، وهو جبل طوله في البحر نحو مائة ميل وللأمواج فيه صوت عظيم، وشرقي ذلك عمائر السفاليين وقاعدتهم (صيونه)، وهي على خور كبير ينزل فيه نهر من جبل (القمر) وفيها ملك السفاليين، ثم ينتهي بعد ذلك إلى مدينة (ليرانه). ذكر ابن فاطمة أنه دخلها وهي بلد حط وإقلاع[3] وأنها للمسلمين، وهي على خور كبير، ومدينة (دغوطة)، آخر مدن (سفالة)

---

(1) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 157.

(2) (بتينة)، في كتاب عجائب الهند (بثينة) بالثاء.

(3) «بلد حط وإقلاع»: ميناء، حط: رسو، وإقلاع: خروج السفينة من الميناء.

وآخر العمارة في البر[1] المتصل[2]».

حيّة صيمور:

«وحدّثني جعفر بن راشد المعروف بابن لاكيس، وهو أحد ربابنة بلاد الذهب، ونواخذته المشهورين فيه، أنّ حيّة جاءت إلى خور (صَيْمور)، فابتلعت تمساحا كبيراً، وبلغ صاحب (صَيْمور) الخبر فوجّه من يطلبها، وأنّه اجتمع عليها زيادة على ثلاثة آلاف رجل حتّى ظفروا بها، وشدّوا في عنقها الحبال، واجتمع عليها جماعة من أصحاب الحيّات، فقلعوا انيابها وشدّوها بالحبال، وحصل لها شجّة من رأسها إلى أذنها، وذرعوها وكانت أربعين ذراعاً، وحملها الرجال على أعناقهم، وكان تقديرها آلاف أرطال، وكان ذلك في سنة أربعين وثلاثمائة[3]».

* * *

ليس في هذه الحكاية غير المبالغة في حجم الحية. وجميع حكايات الحيوانات هنا لا تخلو من المبالغة و(صيمور) من موانئ الجزء الشمالي من ساحل الهند الغربي، من ميناء (بمباي) شمالاً، ونجد تحديداً أدق لموقع (صيمور) في الحكاية التالية: حيث قال بُزرك:

---

(1) «البر المتصل»: يقصد أن الساحل الشرقي من أفريقيا ينقطع بعد (دغوطة) وينعطف إلى جهة الغرب.

(2) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 152.

(3) بُزرك، عجائب الهند، ص 174.

«ومن مصائب البحر التي أثرت إلى يومنا هذا ما حدّثني به بعض التجار، قال: خرجت في مركب من (سِيْراف) في سنة ست وثلاث مائة يريد (صيمور) وكان معنا مركب عبد الله بن الجنيد، ومركب سبأ، وكانت هذه الثلاثة مراكب في نهاية الكبر، ومن المراكب الموصوفة في البحر ونواخذتها مشهورون لهم قَدْر ومنزلة في البَحْر، وفي المراكب ألف ومائتا رجل من التُّجار والنواخذة والبانانيّة والتجار وغيرهم من صنوف الناس، وفيها من الأموال والأمتعة ما لا يعرف مقداره لكبره، فلمّا سرنا أحد عشر يوماً رأينا آثار الجبال ولوائح أرض (سندان) و(تانه) و(صيمور) وما سار هذا السَّير السريع قبلهم أحد فيما سمعنا، فاستبشرنا وسررنا، وَبَشَّر بعضنا بعضا بالسَّلامة وأخذنا في الاستعداد لأنا قَدَّرنا أنا نصبح من غد الأرض. ثم جاءتنا الرِّيح من الجبال فلم نضبط الشرع، وأخذنا الخبّ والمطر والرَّعد والبرق، فقال الربانية والبانانية: نطرح الأمتعة. فمنعهم أحمد، وقال: لا أطرح إلاّ بعد أن يخرج الأمر عن يدي وأعلم أنِّي هالك، ونزل الرجال يَنْزفون الجَمَّة[1] من الجانبين والمركبان [الآخران] على مثل حالنا، كل واحد منهما يَنْتظر صاحبه ما يفعل من طرح أو غيره فيفعل مثله، وضَجّ التجار، وقالوا له: اطرح الأمتعة وأنت في الحل فإنا نهلك، فقال: لا أطرح البَتَّة ولم يزل الأمر يتزايد إلى أن مضت خمسة أيام، فلما كان في اليَوْم السادس، وكاد المركب أن يغوص في البحر، قال: اطرحوا الحمولة، فلم يمكن طرح شيء [في البحر] لأن الخوابي والأعدال ثقلت بالمطر، وكان ما فيه

(1) الجَمّة: الماء المتسرب من جانبي السفينة من الداخل إلى قعرها، وهي فصيحة.

خمسمائة منّ، فقد صار فيه ألف وخمسمائة منّ بالمطر، وعاجلهم الأمر وطرحوا القارب إلى البحر ونزل فيه ثلاثة وثلاثون رجلا، وقيل لأحمد: قم فانزل في القارب، فقال: لا أبرح من مركبي، فانه أرجا في السلامة من القارب، وان تلف تلفت معه، فلا حَظَّ لي في الرجوع بعد تلف مالي.

قال لي هذا التَّاجر: فمكثنا في القارب خَمْسة أيام ليس معنا لا ما يؤكل ولا ما يُشْرب، إلى أن لم يَبْق فينا فَضْل أن نتكلم بكلمة من الجوع والعطش والشِدَّة التي مضت علينا في البحر، والقارب تقلبه الأمواج والرِّياح لا ندري هو في البحر أم لا، ولشدّة الجوع وما نحن فيه أومينا إلى بعضنا بعضا أن نأكل واحداً منّا، وكان معنا في القارب صبي سمين لم يبلغ، وكان أبوه في جملة من تخلف في المركب، فعزمنا على أكله فأحسّ الصبي بذلك فرأيتُه وهو ينظر إلى السَّماء ويحرّك شفتيه وعينيه تحريكاً خفيّاً فما مضت ساعة حتى رأينا آثار الأرض، ثم لاحت لنا الأرض، ثم جنح القارب على البّر وانقلب القارب ودخله الماء وليس لنا قوّة للقيام ولا لحركة، وإذا برجلين قد نزلا إلى القارب، فقالا لنا: من أين أنتم فقلنا نحن من مركب فلان. فأخذوا بأيدينا واخرجونا إلى الأرض، فوقعنا على وجوهنا مثل المَوْتى، ومضى واحد منهما يعدو على وجهه، فقلت للآخر: أين نحن؟ فقال: هذا الدخان الذي تراه من (التيِّز) وقد راح صاحبى إلى القرية، فعندنا الزاد والماء والثياب. فحملونا إلى البلد. وهلك جميع أهل المراكب الثلاثة، فلم يسلم منهم أحد إلاّ نفر من الذين كانوا في القارب، وكان في جملتهم [يعني

الهالكين] ربّان المركب أحمد، وكان اسمه بقي.

وكان قد زاد تلف هذا المركب وما فيها من المعائش في اختلال (سيراف) و(صيمور) لعظيم ما كان فيها من الأموال ووجوه النواخذة والربّان والتجار[1]».

* * *

علامات بر (صيمور) و(سندان) و(تانه) تظهر جميعاً – كما قال راوي الحكاية – من عرض البحر للمسافر إلى (صيمور)، فهي موانئ متقاربة، ليست بعيدة عن ميناء (بمباي)، في الوقت الحاضر، فـ(تانه) هي جزيرة مجاورة لميناء (بمباي) من الجنوب، وكانت مرفأً للسفن قبل (بمباي).

فهذه الحكاية ليس فيها شيء من المبالغة والخيال، فالملاحة بجوار ساحل الهند الغربي تصير خطرة في موسم شدة الرياح الجنوبية الغربية، وهو موسم هطول الأمطار الغزيرة على هذا الساحل، وقد شاهد ابن بطوطة الينكات الصينية تتقاذف بها الأمواج الصاخبة، وتحطمها أمام هذا الساحل[2]. وتشتد هذه الرياح طيلة ثلاثة أشهر من أول شهر يونيه إلى نهاية أغسطس، فكانت السفن الشراعية تتوقف خلالها عن السفر إلى الهند من جزيرة العرب وشرقي أفريقيا. ولا تسافر بهذه الرياح إلا في الشهر الأول من هبوبها: من أواخر شهر أبريل، إلى أواخر شهر مايو، وفي الشهر الأخير منه: من أواخر شهر أغسطس إلى أواخر

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 165–168.

(2) ابن بطوطة، الرحلة، ج 2 ص 117، (القاهرة 1967).

سبتمبر، ففي هذه التواريخ تخف عادة، حدة هذه الرياح، ويتهيأ السفر بها من الغرب والشمال الغربي من المحيط الهندي إلى الشرق والشمال الشرقي منه أما من شماله إلى جنوبه، كالسفر من عُمان والخليج إلى ساحل الهند الغربي، أو من (بنجلاديش) إلى مضيق (ملقا). وكذلك من شرقي المحيط إلى الغرب والجنوب الغربي منه فكانت المراكب تسافر بالرياح الشمالية الشرقية، ويدوم موسم هبوبها ستة أشهر تقريباً، من حين توقف هبوب الرياح الجنوبية الغربية إلى بداية هبوبها مرة أخرى.

ونفهم مما تقدم أن سفر المراكب الثلاثة من (سيراف) إلى (صيمور) كان في موسم الرياح الشمالية الشرقية، لأن الخليج العربي، حيث تقع (سيراف) في الشمال، وساحل الهند الغربي، حيث تقع (صيمور) في الجنوب، فيكون دفع الريح الشمالية الشرقية لشراع المركب ملائماً لسيره نحو الجنوب. لكن سفر المراكب الثلاثة كان - كما يبدو - في الأيام الأخيرة من موسم هذه الرياح، واقتراب موسم الأمطار على ساحل الهند الغربي.

ومع أن البحارة تتوخى الدقة في مواعيد السفر، ومراقبة الأحوال الجوية، قبل الإقدام على ركوب البحر في رحلة طويلة كهذه، فقد يحدث من تقلب الأحوال الجوية ما لم يكن في الحسبان، فتنشأ عاصفة ممطرة، تحطم كل ما في طريقها في البحر من السفن، كما حدث للمراكب الثلاثة في الحكاية. وكان من الطبيعي أن تحدث مثل هذه الكارثة البحرية ارتباكاً وخللاً في أسواق الموانئ التي كانت هذه المراكب تتردد إليها.

3. بابشاد

هو النوخذة أبو عبدالله محمد بن بابشاد بن حرام بن حمويه السيرافي «وجه نواخذة بلاد الذهب، وأعرف خلق الله بأمر البحر[1]». ولشهرته بين البحارة صوّره بعض ملوك الهند، فقد كان من عادة هؤلاء الملوك «أن يصوروا كل من له نباهة وَقَدْر ومحلٍّ من سائر أصناف الناس[2]».

وقد أخذ عنه بُزرك، مؤلف الكتاب عدة حكايات، بعضها منسوب إليه شخصياً والبعض الآخر رواه بابشاد عن غيره. وسنلاحظ أن من بين ما رواه عن غيره حكايات لا يقبلها العقل، كحكاية مرور مركب بين مقبضي سرطان. فهذه الحكاية قد سمع البحارة يتحدثون بها في صباه. وحينما سأله بُزرك: أأحكي عنك هذه الحكاية؟ أجابه: «قد سمعت بها، وهو شيء عظيم، ما أدري ما أقول فيه. إلا أن السرطان يعظم في البحر جداً[3]».

وهناك جملة حكايات، غير هذه الحكاية، رواها بابشاد أيضاً عن غيره، وهي حكايات قصيرة، تركنا بعضها دون تعليق. أما التي نسبها بُزرك إليه فهي الحكايات التالية.

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 5.

(2) نفس المصدر، ص 98.

(3) بُزرك، عجائب الهند، ص 5–7.

مخاطرة في عشرين ديناراً:

قال بُزرك: «وقد كان محمد بن بابشاد حدثني أنه كان يمضي في مَرْكبه من (فنصور) يريد (عُمَان)، فلما قطع بحر (هَرْكند) ودخل في بحر الهند، وَعَزَم على أن يَعْبر إلى بلاد الغرب. قال له ربان مركبه: أي مرسى تعلق [تمسك]، من مراسي الغرب، قال: أعلق (ريسوت)، أو فوقها، بفرسخ أو دونها بفرسخ. فقال له الربان: نحن نعلق المرسى الفلاني دون (ريسوت) بخمسين فرسخاً. فتخاطروا في عشرين دينارا يتَصَدُّقون بها، وبين الموضع الذي هم فيه وبين (ريسوت) على الأقل أربعمائة فرسخ، فساروا خمسة عشر يوماً إلى أن قَدّروا أنهم قد قاربوا جبال الغرب، وأخذوا يَتَكلَّمون فيما كانوا تخاطروا فيه إلى الليل، وساروا إلى غد ذلك اليوم، فلما أصبحوا صعدوا بالديدبان إلى رأس الدقل، فلم ير شيئاً، فنزلوا. فلما صَلّوا العصر قال محمد بن بابشاد: أرى آثار الجبال، فقالوا: ما نرى شيئاً، فقال للديدبان: اصعد، فلما صعد الدَّيدبان واستقر على رأس الدقل، صاح: رحم الله من كبر، فكبروا واستبشرا وبكوا من شدة الفرح والسرور، وساروا طول ليلتهم إلى قرب السحر، فلما كاد الفجر أن يطلع، قال محمد بن بابشاد: اطرحوا الأنجر، فطرحوه وحَطّوا الشّراع، وقال للربان: أين نحن؟ فقال: في موضع كذا وذكر مَوْضعا بَينه وبين (ريسوت) أربعون فرسخاً. فقال له محمد بن بابشاد: نحن على (ريسوت) سواء إما أن تكون بين أيدينا برمية سهم أو بحذاء، المركب، أو دوننا برمية سهم، وأصبحوا وهم على (ريسوت) سواء. وقال محمد بن بابشاد: إذا كنت في البحر وأحببت أن تعرف هل

أنت بقرب أرض أو جبل فانظر بعد العصر إذا انحطت الشمس، فانها إذا انحطت وكان في وجهها جبل أو جزيرة تَبيَّنت[1]».

* * *

فهذه القصة ليس فيها شيء عجيب غير أن النوخذة كان أكثر خبرة بالبحر ودراية بخطوط الملاحة فيه، من الربان. فالربان، عادة، هو المسؤول عن قيادة المركب، وتحديد خط مسيرة، أما النوخذة فهو المسؤول الأول عن إدارة المركب، وتجهيزه بالعد والعتاد، وتحديد نوع ما يحمله المركب من متاع وركاب، فهو صاحب المركب، أو وكيله. لكن قد يكون النوخذة لطول عمله في البحر وكثرة أسفاره خبيراً بخطوط الملاحة الصحيحة، وتصريف المركب في المواضع الخطرة، فيقوم بقيادة المركب إلى جانب الربان. وسنرى فيما بعد، أن هناك، أيضاً، أستاذاً أو معلماً، تكون مهمته قيادة المركب فلكياً. فحسب مواقع النجوم كانوا يهتدون إلى المجاري الصحيحة للأماكن المقصودة. ويبدو أن النوخذة بابشاد كانت لديه دراية بنجوم مجاري الأماكن التي يتردد إليها، وتثبيت دفة المركب عليها، وذلك ما يتضح من جوابه حين سأله ربان مركبه، بعد خروج المركب من بحر (هركند)، ودخوله في بحر الهند أو بحر العرب: «أي مرسى تعلق من مراسي العرب؟». فقال: «أعلق (ريسوت) أو فوقها بفرسخ، أو دونها بفرسخ» يعني أنه يمسك مجرى ميناء (ريسوت) بساحل عُمان الجنوبي، بعد خروجه من بحر (هركند) وبين (ريسوت) والموضع الذي هم فيه حوالي أربعمائة فرسخ، عن

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 09–92.

ألف ومائتي ميل، قطعها المركب في خمسة عشر يوماً. واهتدى في مجراه بموقع مغيب النجم أو النجوم، المقابلة لموقع (ريسوت) في دائرة (الأخنان)، المعروفة بـ(الدِّيرة)، عند البحارة في الوقت الحاضر، وهي (البوصلة).

و(فنصور): ميناء الكافور الذي خرج منه مركب بابشاد إلى عُمان يقع في غربي الجزء الشمالي من جزيرة (سمطرة) أو (شمطرة) – كما تسمى عن بحارة القرن الخامس عشر الميلادي – قال المعلم سليمان بن أحمد المهري: وأما بنادرها المشهورة، يعني مراسي جزيرة (شمطرة) فبندر (شمطرة) من جانب الشرق، وبدنر (فنصور) من الغرب[1].

وسميت جزيرة (سمطرة) عند المتأخرين نسبة إلى مدينة (سمطرة) التي كانت في أيام ابن بطوطة مقر سلطان الجزيرة، ويسميها ابن بطولة (جزيرة الجاوه)، كذلك برّ (سيام) و(الهند الصينية) يسميها (ملّ جاوه) أي برّ (جاوه)[2].

قردة تحمل من باناني:

قال بابشاد أن بانانياً، أي بحاراً كان له من قبل «حَدَّثه أنه خرج في سنة تسع وثلثمائة في مركب لبَعْض النواخذة إلى (قاقلة). فلما وصلوا

(1) سليمان بن أحمد المهري، العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، تحقيق إبراهيم خوري (مجمع اللغة العربية – دمشق 1970) ص 68.

(2) أبو عبدالله بن محمد بن عبدالله المعروف بابن بطوطة، الرحلة، ج 2 ص 152–156 (الطبعة الأولى – القاهرة 1967م).

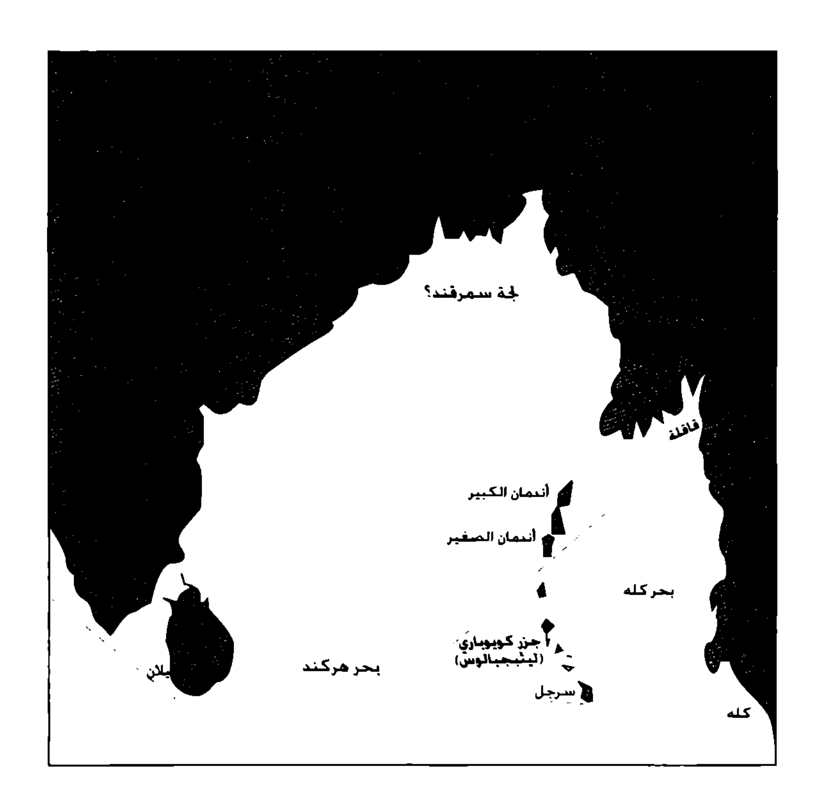
بالسلامة ونجّلوا [أخرجوا] أمتعتهم إلى البر، وحملوا بعض الأمتعة إلى بلد بينه وبين البحر مسيرة سبعة أيام ونحوها، فلما حملوا تلك الأمتعة إلى ذلك البلد، رفعوا المركب في خور [شرم] صغير على ثلاثة فراسخ من قاقلة أو أربعة، وسدوا بينه وبين البحر، وجللوه [غطوّه] وأقاموا الخشب حوله وسندوه. قال هذا الباناني [النوتي]: وتركوا معي من الزاد حاجتي، وَمَضَوْا بأسرهم إلى تلك المدينة، فأقاموا في بيعهم وشرائهم، فلما بعدوا عني جاءني عدة من القردة فطافوا حول المركب وراموا الصعود إليَّ فرميتهم بالحجارة ولاحقت المركب قردة لها خلق وجثة فطردتها، فلم تبرح فسارقتني من بعض جوانب المركب فصعدت إليَّ فلما حَصَلت معي في المركب وكنت آكل، طرحت لها كسرة [قطعة] من خبز فأكلته وأقامت عندي ساعة، ثم نزلت فغابت عن عيني إلى العشيّ، ثم وافت وفي فمها قنو صغير فيه نحو من عشرين موزة، فصاحت فتطلعت إليها، فصعدت إلى المركب، فوضعت الموز بين يديّ فأكلت، وأقامت عندي بعد ذلك، فكانت تغيب وتجيء بالموز والفاكهة، التي في تلك الغوطة، وصارت تبيت معي في المركب وإلى جانبي، فشاقت نفسي إليها فوطئتها، فما مضت ثلاثة أشهر في مقامي في الموضع حتى ثقلت، وجعلت تمشي متحاملة وأومت إلى بَطْنها، فعلمت أنها قد حملت مني، فورد عليّ من ذلك أمر عظيم، وخفت الفضيحة متى جاء القوم وشاهدوا الأمر، فحملني الحياء إلى أن أخذت دونيج المركب [قارب] وحملت له دقلاً وشراعاً وأنجراً، وجعلت فيه قرب ماء وزاداً، وأخذت ثيابي وما كان معي وحملته فيه، وتعمدت

وقتاً تغيب فيه القردة، فنزلت إلى الدونيج ودخلت البحر على غرر عظيم، وخطر شديد، وتركت المركب ليس معه أحد، فسرت نَيْفاً وعشرين زاماً، ووقعت إلى جزيرة من جزائر (أندمان) بعد أن كدت أن أتلف، لعظيم ما مَرَّ بي من الشدة، فأقمت في تلك الجزيرة أياماً حتى استرحت، وأخذت من ماء عذب كان فيها ملء قربة ومن ثمار فيها وموز، وأصلحت أمري، ولم أكن رأيت بالجزيرة أحداً، إلاّ الصَّيادين في قوارب ينزلون بين الشَّجر، فسرت في البحر لا أدري أين آخذ ولا أهتدي نحو سبعين زاما، فوقعت في جزيرة يقال لها (بدفاركلّه) فأقمت بها إلى أن خرجت منها إلى (كله) فخرجت منها فلقيت بعد ذلك بزمان صاحب ذلك المركب وقوم راكبون فيه. فقلت: ما شأنكم: فقالوا: إنهم وردوا الموضع فوجدوا في المركب قردة قد وضعت قردا أو قردين وجوههم تشبه وجوه بني آدم سواء، وصدورهم لا شعر عليها وآذنابهم فيها قصر عن أذناب القرود. وظنوا أن القردة حملت من ذاك الباناني، وأنه هرب في الدونيج لأنهم ما فقدوا شيئاً غير الدونيج وآلته، وأن بعضهم ظن أن القردة قتلته، وأن الدونيج سرقه مجتاز أو صياد ورجموا الظنون ورموا بالقردة وأولادها.

قال لي محمد بن بابشاد: وكان هذا الباناني الذي حدثني ضعيف البصر جداً، فسألته عن ذلك، فقال: ضعف بصري لما كنت أجامع القردة، وزاد في ضعفه طول مكثي في البحر[1]».

* * *

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 67–70.



(6)
جزائر (أندمان) و(لينجبالوس)

فهذه الحكاية، باستثناء ما ورد فيها عن حمل القردة من الرجل، وهو الأمر العجيب في الحكاية، يمكن التسليم بصحتها، فهي خالية من الأشياء الخيالية، التي لا يقبلها عقل، كمرور السفينة بين ظفري سرطان، كما في الحكاية السابقة، التي سمع بها النوخذة بابشاد، وهو في أيام صباه، وفي حكاية عقارب بلاد واق الواق، فهو لم يكن من نواخذة هذه

البلاد، وكل ما ذكره عن الواق واق ينسبه إلى غيره من البحارة، فهو – كما عرّفه بُزرك – «وجه نواخذة بلاد الذهب»، وتذكر بلاد الذهب بعد الهند، وتليها شرقاً بلاد الصين، ولا نجد لها تحديداً غير هذا عند بُزرك. أما أهل الواق واق فنجد ذكرهم عند نواخذة بلاد الزنج، والجزر الجنوبية منها. وفي حكاية البحار والقردة تذكر (قاقلة)، وهي مدينة تجارية تبعد ثلاثة فراسخ عن الموضع الذي تُرك فيه المركب، كما تذكر جزائر (أندمان) وهي جزائر مازالت، حتى الوقت الحاضر معروفة بهذا الاسم في خليج (البنجال) بين (الهند) وبين ما كان يعرف قديماً بساحل (سيام) وهو تابع لجمهورية (بورما) في الوقت الحاضر و(سيام) تسمى الآن (تايلاند). كما تذكر أيضاً جزيرة (بدفار كله) و(كله). وكانت (كله) قديماً ميناء هاماً بمنتصف الطريق بين عُمان والصين تقريباً، ومنها استطاع البحار أن يعود إلى موطنه في الخليج أو عُمان. ويقدر البحار المسافة التي قطعها من ساحل (قاقلة) إلى أولى جزائر (أندمان)، بما يزيد قليلاً على عشرين زاماً، ويقدر الزام عند البحارة المتقدمين، بربع الليل، أو النهار، أي بثلاث ساعات، فيصير اليوم الكامل بثمانية أزوام (3×8=24 ساعة). أي أنه قطع المسافة من (قاقلة) إلى جزيرة (أندمان) بقاربه الصغير، فيما يزيد قليلاً على يومين ونصف، وهي مسافة قصيرة، فإذا نظر إلى خريطة (خليج البنجال) نلاحظ أن جزر (أندمان) أقرب إلى ساحل (سيام) أو (بورما)، وبخاصة رأس (بخريس) المعروف عند البحارة العرب، أيام ابن ماجد، برأس (بخراشي)، واستناداً إلى ذلك يمكن القول بأن (قاقلة) كانت على ساحل (سيام)، فالمراكب العربية

كانت تتردد بالتجارة إلى هذا الساحل، وأن القارب سار بالرياح الشمالية الشرقية حوالي يومين ونصف إلى إحدى جزر (أندمان)، ومنها سار نحواً من سبعين زاماً إلى (بدفار كله) أي ثمانية أيام وحوالي نصف يوم، وهي مسافة تساوي تقريباً أربعة أضعاف المسافة بين رأس (أندمان) ومنتصف ساحل شبه جزيرة (ملقة) أو (ماليزيا) حالياً، حيث كانت، على الأرجح مدينة (كله)، فالطريق إليها من عُمان كانت تمر بحذاء ساحل جزيرة (سيلان) الجنوبي إلى جزائر (نيكوبار) وجزيرة (سرجل) ثم تتجه شرقاً إلى رأس مضيق (ملقة)، ومن هناك تنحدر إلى (كله). على الساحل الشرقي من شبه جزيرة (ملقة)، شمالي ميناء (ملقة)، الذي حل محل ميناء (كله) فيما بعد.

العثور على خاتم غريق في بطن سمكة:

ومن الأحاديث المنسوبة إلى بابشاد: «أنه كان بسيراف وقد خرج منها مركب إلى البصرة ووقع فيها، خبّ [هيجان البحر] بعد خروجه بأيام فانقطعت المركب، وتعلقت القلوب بأخبار البحر وتأخر المركب، وكان في ذلك المركب خلق من الركاب وغيرهم وأمتعة لها قدر، وأن امرأة اشترت سمكاً وكانت تنظفه فوجدت في واحدة منها خاتماً، فنظرت إليه فإذ هو خاتم أخيها، وكان ممن ركب في ذلك المركب فارتفع الصراخ وشاع الخبر فصارت منازل جميع من كان له في المركب قريب أو حميم أو صديق مأتما، ثم جاء الخبر، بعد أيام أن المركب انكسر

ولم يسلم منه أحد[1]».

* * *

والعجيب في هذه الحكاية هو معرفة خبر تحطم المركب بالعاصفة، بالعثور على خاتم أحد ركابه في بطن سمكة. وهي حكاية قد تكون صحيحة.

قرد له وجه إنسان:

قال بُزرك:«وحدثني محمد بابشاد قال: رأيت بـ(سريرة)، عند امرأة بها، دابة على صورة بني آدم إلا أن وجهها أسود مثل وجه الزنج، ورجليه ويديه طوال، أزيد مما عليه الآدمي، وله ذنب طويل، وعليه شعر مثل شعر القرد، وهو جالس في حجر المرأة، قد تشبث بها. فقلت لها: ما هذا؟ فقالت: من أهل الغياض والأشجار. وكان يصيح صياحاً ضعيفاً لا يفهم ما هو. وهو قريب من القرد إلا أن وجهه وجه بني آدم وخلقته مثل بني آدم[2]».

* * *

ليس في هذه الحكاية – كما نرى – شيئاً عجيباً، فهناك من القردة أنواع مازالت موجودة، حتى الوقت الحاضر، لبعضها وجه يشبه وجه الإنسان، ومنها قرد غابات (الأمازون) الأبيض. لكن ما يهمنا في هذه

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 60–70.

(2) بُزرك، عجائب الهند، ص 124–125.

الحكاية، أن النوخذة بابشاد لكثرة تردده إلى موانئ التجارة الدولية، في الجزر الأندونيسية، كان يفهم لغة سكانها الأصليين، ومن هذه الموانئ ميناء (سريرة)، وكان في عصره أشهر موانئ هذه الجزر، ومنه كانت المراكب تنطلق إلى ساحل الصين الجنوبي.

ويقول بُزرك في وصف (سريرة) في موضع آخر من كتابه: «وقد ذكرت أمر (سريرة) وأنها في آخر جزيرة (لامري). وبين (سريرة) و(كله) مسيرة مئة وعشرين زاماً، والله أعلم [خمسة عشر يوماً]. وبلغني أن خور (سريرة) يدخل في الجزيرة خمسين فرسخاً، وهو نهر أوسع من (دجلة البصرة) بكثير، ماؤه عذب مثل ماء (دجلة البصرة)، وليس في أخوار بلدان هذه الجزيرة، أطول منه، والمدّ فيه اثنتا عشرة ساعة، وفيه التَّماسيح (...) ودور (سريرة) بعضها في البر ومعظمها في الماء، مبني على خشب ملفق مثل الأطواف. ويبقى طول الدهر، وكل ذلك بسبب النَّار، فان الحريق يقع كثيراً عندهم لأن الأبنية من خشب، فأدنى شيء يقع من النار فتحترق سائر الدور، فقد جعلوا هذه الدور في الماء استظهاراً، فان وقع حريق أمكن صاحب المنزل أن يقطع الأناجر من منزله ويتحوّل إلى ناحية أخرى فيهرب من النار، وربّما كره بعضهم جوارَ بعضهم، فيتحول عنه إلى حارة أخرى، والدور صفوف في الخور مثل الشوارع، والماء بين الدور غزير جدّا، وهو عذب لأنّه من فوق إلى أن يَنْصَبَّ في الخور ويخرج إلى البحر على هيئة دجلة من البحر[1]».

* * *

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 176–177.

عند الجغرافيين العرب نجد اسم (سريرة) لأكبر جزيرة من جزائر المهراج، ولأكبر المدن فيها. وهي مقر ملك المهزاج، وهي عامرة آهلة. وإذا أقلع المركب طالباً الصين واجهته على مسيرة عشرة أيام جبال ممتدة داخلة في البحر فإذا قرب المسافرون منها وجدوا فيها أبواباً وفرجاً يفضي كل باب منها إلى بلد من بلدان الصين. وجزائر المهراج جزائر كثيرة، وصاحبها من أغنى ملوك الهند، وأكثرهم ذهباً وفيلة. وبين (سريرة) وجزيرة (كله) عشرون مجرى، أي جري المركب عشرين يوماً[1].

وقد ذكرنا من قبل أن بُزرك يجعل بين (سريرة) و(كله) مسيرة مائة وعشرين زاماً أي خمسة عشر يوماً. لكن مثل هذا الاختلاف في تقدير المسافات لا يؤخذ به. فقد يحدث هذا من عوامل طبيعية، كتقلب الطقس، والأحوال الجوية، أو من تصميم المركب وصناعته.

ونلاحظ أن وصف برزك لدور (سريرة) لا يختلف عن وصف دور أي ميناء من موانئ جنوب شرقي آسيا المقامة حول مجاري الأنهار، في الوقت الحاضر. فبسبب رخاوة التربة الناتجة عن مياه الأمطار الغزيرة، والمد البحري الطويل، في مثل هذه الأماكن، ورخص الخشب، تقام الدور من الخشب على أعمدة قوية، تعلو مستوى المد، وهي أكواخ مؤلفة غالباً من غرفتين ومطبخ، ويغتسل السكان بمياه النهر المختلطة بمياه البحر، أمام الأكواخ. أما الأطواف والقوارب الراسية على جانبي مدخل الميناء، فهي مازالت على عهدها القديم في أيام بُزرك تقف

(1) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 375.

متلاصقة في صفين على جانبي مدخل البندر، ولا يسقف من القارب، غير وسطه أو مؤخرته، والسكان يعملون في البندر، ويبقى الأطفال والعجزة في القوارب. ويستطيع رب كل بيت أن ينتقل بسهولة بقاربه إلى أي مكان يراه ملائماً لمكان عمله.

زرافة سمطرة:

وهناك حكاية لمحمد بابشاد تجعل (فنصور) من جزيرة (لامري) فقد حكى «عمن حدثه من أهل المراكب التي كسرها البحر، أنهم اضطروا إلى المشي من نواحي (فنصور) إلى (لامري). وكانوا لا يمشون بالليل خوفاً من الزرافة لأنها لا تظهر بالنهار، فإذا أقبل الليل صعدوا على شجرة عظيمة خوفاً منها. فإذا كان الليل أحسوا بها تدور حولهم، ويرون بالنهار آثار وطئها على الرمل. وأن بالجزيرة من النمل ما لا يوصف كثرة، وخاصة بجزيرة (لامري) فإن النمل فيها عظيم[1]».

* * *

فـ(لامري) – كما يبدو – اسم لبلد نسبت إليه الجزيرة. وهو عند ابن ماجد وسليمان المهري، اسم لأشهر جبل بالطرف الشمالي من جزيرة (سمطرة) يراه المسافر إلى مضيق (ملقة)[2]. وناحية (فنصور) مع

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 125.

(2) سليمان بن أحمد المهري، العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، تحقيق إبراهيم خوري طبع مجمع اللغة العربية – دمشق، ص 65.

(لامري) في جزيرة واحدة.

أغباب سرنديب:

ومن الحكايات العجيبة، ما حكاه بابشاد، عما شاهده في (أغباب سرنديب) من البلاد الواسعة، والتجارة العظيمة، حيث قال: «أن بـ(أغباب سرنديب) بلاد يقال لها (أبرير) بلد عظيم، فيه نيف وثلاثون سوقا كل سوق منها طولها نصف ميل، وبه الثياب العبية المرتفعة الحسنة، وهو بلد راكب على نهر كبير يصبّ في بحر (الأغباب) ولأهل هذا البلد نحو من ستمائة بُدٍّ [صنم] جليلة سوى الصّغار، وهو نحو أربعمائة بريد[1]، وبظاهر البلد جبل يجري تحته عين ماء، وإلى جانب الجبل شجرة من نحاس وصفر عظيمة فيها شوك مثل السفافيد أو المسال[2]، وبإزائها صنم عظيم، في صورة زنجي عيناه من زبرجد، ولهم يوم عيد في كل سنة عند ذلك الصَّنم، فيخرجون إليه ويصعدون فوق الجبل فمن أحب التقريب إلى ربه شرب وغَنَّى وسجد للصَّنم مراراً ورمى بنفسه من فوق الجبل وعلى تلك الشجرة، فينقطع منها قطعاً، ومنهم من يرمي بنفسه على دماغه فوق حجر عظيم يجري، عليه ماء العين تحت الصنم الاسود فيطحن فوق الحجر إلى نار الله[3]».

---

(1) البريد: 12 ميلاً تقريباً.

(2) السفافيد، مفردها سفود: حديدة يشوى بها اللحم. والمسال: الإبر العظام وواحدتها مسلّة.

(3) بُزرك، عجائب الهند، ص 5 و6.

هذه الحكاية حقيقية، فقتل النفس مازال يمارس، حتى في الوقت الحاضر، في بعض الطقوس الدينية بالهند. وقد تعجب بُزرك من قتل الهنود لأنفسهم بضروب القتل، وقد ذكر في ذلك بعض الحكايات ومنها ما حدثه عنه محمد بن بابشاد أيضاً.

عجوز تغرق نفسها في النهر:

«قال: رأيت نهراً من أنهار (الأغباب)، التي تجري إلى البحر، يجري في الجزر جرياً عظيماً، والمد يجري كذلك، فمررت في بعض الأيام بذلك النهر، والماء قد نزل عن أكثره، وظهرت حافتاه، وإذا بعجوز عليها ثيابها، متربعة قاعدة على الرمل على ضفة الماء، فقلت لها: ما الذي يقعدك هاهنا؟ فقالت لي: أنا عجوز كبيرة، وقد عشت مدة طويلة، وأكلت من الدنيا قطعة، واحتجت أن أتقرب إلى خالقي لأنجو. فقلت: فما الذي يقعدك هاهنا؟ فقالت: انتظر الماء [المد] حتى يجيء فيحملني. فمازالت قاعدة في موضعها حتى جاء الماء فحملها وغرقها.

وقد ذكرت في هذا الجزء، في غير موضوع من أخبار الهنود في قتلهم أنفسهم بضروب القتل ما فيه الكفاية[1].

* * *

«أغباب سرنديب»: قد تكون أماكن لها صفات خاصة، من

---

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 122-123.

(سرنديب) وهي جزيرة (سيلان)، وليست الأغباب جمع غبّة، التي هي، عند البحارة، مياه البحر العميقة، كما تطلق على الخليج أيضاً. فهذه الأغباب فيها مدن كبيرة بها أسواق تجارية طويلة. ويقول بُزرك في جزيرة (سرنديب): «ومن الجزر الموصوفة التي ليس مثلها في البحر، جزيرة سرنديب وتسمّى (سهيلان)، وطولها نحو مائة فرسخ ودورها ثلثمائة فرسخ، وفيها مغاص اللؤلؤ النقيّ إلاّ أنه صغار، ومهما كان منه كبار فهو رديء، وجبلها حصين وهو جبل الياقوت والأدماس، ويقال أنّ هذا الجبل هو الذي هَبَط عليه آدم عليه السلام، وفيه أثر قدمه طوله نحو سبعين ذراعاً، وأهل الجزيرة يقولون: أن هذا الأثر هو رجل آدم عليه السلام، وأنّه وضع رجلاً هاهنا والرجل الأخرى في البحر وفيها تراب أحمر، وهو السنباذج الذي يخرط به البلور والزجاج، وقشور أشجارها القرفة المرتفعة، وهي القرفة السهيلانية الموصوفة، وحشيش هذه الجزيرة أحمر يصبغ به الثِّياب والغزل، وهو صباغ يفوق البقم والزعفران والعصفر، وكل صبغ أحمر، وبها من غرائب النَّباتات مما يطول شرحه ويتعَجَّب منه، وقيل: إن بجزيرة (سرنديب) نحو مائة ألف قرية[1]».

بلاد السهال:

يبدو أن جزيرة (سهيلان) والجزر المجاورة لها، كانت تعرف ببلاد

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 179—180.

(السهال) فبرزك يقول: «وحدثني بعض من دخل بلاد (السهال) أنه رأى بجزيرة (البقر) وهي بين جزيرة (سرنديب) وبين (مندورين)، وهي من الجزائر التي حوالي جزيرة (سهيلان) بُدّاً [صنماً] للهند [يعني الهنود] عظيماً. وأن الهند [الهنود] يقولون إن هذا البد كان بجزيرة (سهيلان)، فعبر البحر حتى صار بجزيرة (البقر) وأنه يقيم في كل جزيرة منها ألف سنة ثم يعبر إلى أخرى[1]».

* * *

الجزائر التي حوالي جزيرة (سيلان) هي جزائر صغار مجاورة لها، وليست من جزائر (نيكوبار) أو من جزائر ما تسمى الآن بـ(مالديف)، وهي إلى الغرب من (سيلان)، بينما (نيكوبار) إلى الشرق منها، فهذه الجزائر بعيدة عنها. أما انتقال الصنم من جزيرة إلى جزيرة أخرى، فكان يحدث بفعل أهالي الجزر أنفسهم. وقد كان العرب، قبل الإسلام، يفعلون مثل ذلك بأصنامهم.

فجزيرة (سيلان) بحكم موقعها الجغرافي على طريق التجارة الدولية البحرية، بين شرقي آسيا، وشرقي حوض البحر الأبيض المتوسط، عبر طريقي البحر الأحمر والخليج، مازالت محتفظة بمركزها التجاري، على هذه الطريق، حتى الوقت الحاضر.

(1) نفس المصدر، ص 124.

سياسة المركب في العاصفة:

قال برزك إن محمد بن بابشاد حدثه عن النوخذة علامة: «أنه سافر من الهند إلى الصين فبينما هو يسير في بعض البحار حان وقت صلاة الأولى، فهبط إلى المتوضأ ليجدد الوضوء إلى الصلاة، فنظر إلى البحر فلم يلبث أن قام وعاد ولم يتوضأ، وكان كالمذعور وقال: يا رجال! سوء.. ارخوا الشِّراع، ففعلوا، فقال: اطرحوا كل ما على ظهر المركب في البحر. ثم نزل إلى قريب من الماء، ثم طلع مذعوراً وقال: يا تجار! أي شيء عندكم أحبّ لكم أموالكم التي منها ألف عوض، أو نفوسكم التي لا عِوَض لها؟ فقالوا: وأيّ شيء جرى علينا حتى تقول لنا هذا القول.. ريحنا رَخْو وبحرنا رَهْو[1]، ونحن سالمين في كنف رَبِّ العالمين. فقال لهم: ليشهد بَعْضكم على بعض، وليشهد لي رجال المَرْكب على هؤلاء التّجار، أني قد نصحت لهم قبل اللوم، فلم يقبلوا، وأنا أستودعكم الله تعالى. وقال لصاحب القارب [قارب المركب]: قدمه لي، فنزل فيه وأنزل معه فيه ماء ورجالاً وزادا، فلمّا عزم على مفارقتهم قالوا له: ارجع ونحن نفعل ما تأمرنا به

فقال: والله ما أرجع حتى تَطْرحوا كل ما معكم في البحر عن طيب أنفسكم بأيديكم. قال [يعني بابشاد]: فرموا بأيديهم ما عزّ عليهم وهان ولم يبق في المركب سوى بني آدم وزادهم ومائهم فقط.قال: فرجع وطلع المركب، وقال لهم: لو علمتم ما يجري لكم وللمركب في جوف هذه الليلة، فتطهروا وصلوا وأخلصوا التوبة إلى ربكم واسألوه

(1) «ريحنا رخو وبحرنا رهو»: ريحنا ليّنة غير عاصفة، وبحرنا هادئ.

العفو. قال: ففعلوا، فلما كان الليل فتح الله سبحانه أبواب السّماء بريح سوداء ملأت ما بين السماء والأرض ورفعت أمواج البَحْر إلى السّحاب وحطتها إلى التراب، وطمرت من السفن في البلاد والسواحل، وفي وسط البحر، وقَلّ من سلم منها، ومركب القوم قد ألهمهم الله أن خففوا وطرحوا ما عليه من ثقل وغيره وكان كلما جاش البحر عليه خف وعلا على الأمواج وطفا على البحر، وهم يقرأون ويدعون ويبتهلون ولا يأكلون ولا يشربون ثلاثة أيام بلياليها، فلما كان اليوم الرابع أمر الله عز وجل الرِّياح فسكنت، والبحار فهدأت، وأذهب الله ذلك كما عرف من عوائد قدرته سبحانه، فطرحوا قارب المركب من جوفه، وجعل فيه الربان المجاديف وقَدَّمه بين يدي المركب يجرونه يوماً وليلة[1]، فأشرفوا على جزيرة قد طرح إليها البحر كل ما أفسده ذلك الخبّ من المراكب والبضائع والمتاجر من آفاق البلاد، فأرسوا بمركبهم فيها، ووجدوا عدّة مركبهم فيها بعينها، فرفعوها وردّوها إلى مواضعها من مركبهم واختاروا(1) على أعينهم ما أحبّوا من البضائع السالمة، وواروا من وجدوه من الغرقاء، واستقوا. فلما استوى لهم الاقلاع وهَبَّت بموافقتهم الرياح أشرعوا نحو ديارهم وساروا معافين، ووصلوا سالمين، فوجدوا فيما معهم للدرهم عشرة، وربحوا الغنى والعافية، والحمد لله رب العالمين[2]».

* * *

(1) «يوماً وليلة»: اليوم يقصد به النهار، ولاسيما عند البحارة.

(2) بُزرك، عجائب الهند، ص 44–47.

حكايات العواصف البحرية، أو الخب، في الكتاب، جميعها تقريباً خالية من الخرافة والخيال. والعجيب في حكاية بابشاد هذه، هو قدرة النوخذة علامة على قراءة إشارات الخب على مياه البحر، قبل قدومه. ومن المعلوم عند البحارة أن أمواج البحر تشتد حول الرؤوس، والجزر، وتلقي إليها بكل ما حطمته العاصفة من السفن، والغرقى من الركاب.

أهالي جزائر (لجبالوس):

وقال بُزرك إن بابشاد حدثه: «أن أهل جزائر (لجبالوس) وهي جزائر كثيرة طولها ثمانون فرسخاً، يقصدون المراكب ويشترون منهم المتاع يداً بيد، وأنه متى حصل مع أحدهم شيء قبل أن يعطي بدلاً منه، مضى ولم يقدر على استرجاعه منه. وربما انكسر المركب، ووقع إليهم رجل أو امرأة، وسلم معه شيء من ماله، أو ثيابه، فإن كان الذي سلم معه بيده لم يأخذوا منه شيئاً، كائناً ما كان، لأنهم لا يأخذون من يد أحد يقع لهم شيئاً، ثم يقعدونه في منازلهم، ويطعمونه مما يأكلون ولا يأكل الواحد منهم حتى يطعم ضيفه، فإذا أكل الضيف أكل ما يفضل منه. ولايزال عندهم من هذه صورته، حتى يجتاز بهم مركب، فإذا جاءهم مركب، حملوهم إليه، وقالوا لأهل المركب أعطونا شيئاً وخذوه منّا، فلابد لأهل المركب أن يعطوهم شيئاً عنه ويأخذونه، وربما كان الذي يقع لهم شهماً فيخدمهم ويفتل الكنبار [القنبار] ويبيعه عليهم بالعنبر، ويجمع

شيئاً إلى وقت اجتياز المراكب فيجمع شيئاً في مقامه عندهم[1]».

* * *

هذه الحكاية تجعل جزائر (لجبالوس)، على طريق المراكب التجارية، وسكانها يقصدون المراكب، عند توقفها لاستقاء الماء من الجزر، ويتبادلون مع ركابها ما لديهم من الأمتعة، ويبدو أنهم كانوا لا يعرفون شيئاً من اللغات التي كانت معروفة لدى أصحاب المراكب وسفّارها، لذلك كان تبادل السلع معهم يجري يداً بيد، فإذا حدث أن أحد المسافرين سلّم أحد أهالي الجزيرة سلعة دون أن يأخذ منه بيده الأخرى ما يريده من السلع التي يحملها، فإنه لا يعطيه شيئاً منها ويمضي في قاربه. وإن صاح المسافر مطالباً بإعادة سلعته، فإنه لا يفهم ما يقوله، وقد يعتبرها هدية منه.

فمرور مراكب التجارة الدولية بهذه الجزر كان سبباً في تحسين معيشة أهلها، وزيادة ألفتهم بالغرباء المسافرين على هذه المراكب، بخلاف سكان بعض الجزر التي لا تتوقف بها المراكب. وكانت تجارتهم في العنبر والكنبار، أو القنبار، وهو حبال ليف جوز الهند، وبالدقيق من هذه الحبال كانت المراكب تخرّز قديماً، في المحيط الهندي فتثقب أطراف ألواحها وتدخل خيوط الكنبار في الثقوب وتلفق الألواح بعضها ببعض بإحكام، مع ربطها بشدة بأضلاع السفينة من الداخل. ثم جلفطتها. ولم تستعمل المسامير في بناء سفن المحيط الهندي، ومنها السفن العربية، إلا بعد تدخل السفن الأوروبية في الملاحة في هذا

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 127–128.

المحيط اثر اكتشاف طريق رأس (الرجاء الصالح) بجنوب أفريقيا.

وجزائر (لجبالوس) هي (لنجبالوس) في كتاب: «أخبار الصين والهند» المنسوب لسليمان التاجر، و(لنكبالوس) في كتاب «مختصر كتاب البلدان» لابن الفقيه. الذي يجعل موقعها حداً فاصلاً بين بحر (هركند) أو (هرقند) وبحر (كلاه بر). حيث قال: إذا جاوزوا [يعني المسافرين] بحر (هركند) «صاروا إلى موضع يقال له (كله بر) بينه وبين (هرقند) جزائر قوم يقال لهم (لينج)، لا يعرفون لغة ولا يلبسون الثياب[1]». هذا إذا صح أن (بالوس) هو اسم عام للجزيزة عندهم، وعند المسعودي صاحب كتاب «مروج الذهب ومعادن الجوهر» تسمى (لنجالوس)، وهي – كما قال – تتصل بجزائر (أندمان) المعروفة، حتى الآن، بهذا الاسم. وهذا يثبت أن جزائر (لجبالوس) أو (لنجبالوس) أو (لنجالوس) هي جزائر (نيكوبار) في الوقت الحاضر، وأشهرها جزيرة (مقلة)، أو (ماليزيا). وقال إن هذه الجزائر تتصل أيضاً بجزائر (الرامين) و(فنصور) وهذه إلى الجنوب من (لنجبالوس). و(الرامين) هي (سمطرة) وهذا ما يدل عليه قوله: إنها «معمورة وفيها ملوك[2]».

ويجعل المسعودي هذه الجزائر على بعد «نحو ألف فرسخ إلى الشرق من جزيرة (سرنديب)[3]، وعلى الحد الشرقي لبحر (هركند)، وهو البحر الثالث، ويليه بعد هذه الجزر شرقاً (كلهبر)، أي بحر (كله)،

---

(1) أحمد بن إبراهيم الهمداني المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان ص 12 (ليدن 1885).

(2) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 1، ص 171–173 (دار الأندلس – بيروت).

(3) نفس المصدر، ص 171.

وهو البحر الرابع عنده، ويمتد من هذه الجزائر إلى شبه جزيرة (ملقة)، أو (ماليزيا)، ويشمل الحد الشمالي من مضيق (بلته)، وكامل خليج (مرغوي). وهو – كما قال: «بحر قليل الماء، وإذا قل ماء البحر كان أكثر آفات، وأشد خبثاً. وهو كثير الجزائر والصراوي. واحدها صرو. وذلك أن أهل المراكب يسمون ما بين الخليجين، إذا كان طريقهم فيه الصرو. وبهذا البحر أنواع من الجزائر والجبال[1]».

و(كَلَه) التي ينسب إليها هذا البحر هي ميناء على ساحل شبه جزيرة (ماليزيا) من جهة الغرب. أي من جهة المضيق. كان مشهوراً قديماً، قبل ميناء (ملقة) أو (معلقة)، الذي اشتهر في القرن الخامس عشر الميلادي، أيام البحار العربي المشهور شهاب الدين أحمد بن ماجد، ولعل تسميته بالمعلقة يرجع إلى شكل شبه الجزيرة فهو أشبه بالملعقة.

والميناءان: (كله) و(ملقة) كانا يتلقيان تجارة الشرق والغرب في العالم القديم. فهما في منتصف الطريق البحرية بين عُمان والصين، تقريباً، وموقع (كله) إلى الشمال – كما يعتقد – من (ملقة) عند مدخل المضيق من الشمال، مقابل لجزيرة (سرجل). (انظر الخريطة).

جزائر أكلة البشر:

وبعكس جزائر (لينجبالوس) هناك جزائر كانت البحارة تُحذر وتحذّر من الاقتراب منها، فسكانها يهاجمون كل مركب يصادفونه

(1) المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج 1، ص 25–26 (دار الأندلس – بيروت).

في طريقهم، بالسهام المسمومة، ويقتلون ويأكلون كل من يقع بأيديهم من أهل المركب أو غيرهم. ومن هذه الجزائر جزيرة (النيان) قال بُزرك:

«وحدثني محمد بن بابشاد أن بجزيرة (النيان)، وهي جزيرة في البحر بينها وبين (فنصور) مقدار مائة فرسخ، قوم يأكلون الناس أيضاً، ويجمعون رؤوس الناس عندهم، ويفتخر الواحد منهم بكثرة ما يجمع من الرؤوس، ويشترون سبائل الصفر بالثمن الوافر، ويدّخرونه مكان الذهب، ويبقى في بلادهم الدهر الطويل. كما يبقى الذهب عندنا. والذهب عندهم لا مقام له، بل يكون منه ما يكون من الصفر عندنا فتبارك الله أحسن الخالقين.

وبعد جزيرة (النيان) ثلاث جزائر يقال لها (براوه) أهلها أيضاً يأكلون الناس، ويجمعون رؤوسهم، فيتعاملون بها ويقتنونها[1]».

«وحدثني أن جميع أهل (فنصور) و(لامري) و(كله) و(قاقلة) و(صنفين) وغيرهم يأكلون الناس. إلاّ أنهم لا يأكلون إلاّ أعداءهم من طريق الغيظ عليهم، وليس يأكلونهم من طريق الجوع. ويقدّدون من لحم الإنسان، ويصنعون منه أنواع الصنعة والألوان وينتقلون به إلى الخمر[2]».

* * *

هذه الحكايات كلها حقيقية، وليس فيها شيء من الخيال، فبعض

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 126.

(2) بُزرك، عجائب الهند، ص 126–127. وقوله: (إلى الخمر) لعل الصواب (مع الخمر).

الجزائر المجاورة لجزيرة (سمطرة)، من جهة الغرب، وبعض الأماكن من ساحلها الغربي، بقيت المراكب التجارية العربية وغيرها، تخشى الاقتراب منها حتى في أيام ابن ماجد، وسليمان المهري، بعد أكثر من خمسة قرون ونصف من تأليف بُزرك «كتاب عجائب الهند»، وبعد أن تنكرت أسماء الجزر، نجد سليمان المهدي يحذرنا من سكان هذه الجزر، حيث يقول: «واعلم أن جزر (ميقاماروس) فيها ناس كالسباع يأكلون الآدميين، وكذلك أهل ظهر جزيرة (سمطرة) [ساحلها الغربي]، وأهماجها يأكلون الآدميين، يقال لهم (البطخ)[1]». ويجعل المهري المسافة، بين هذه الجزيرة وميناء (فنصور)، مسيرة ثمانية أزوام، عن يوم كامل، وعند بُزرك مائة فرسخ عن ثلاثمائة ميل تقريباً. وهي تقريباً نفس المسافة عند المهري. ويسمي ابن ماجد سكان جزر (ميقاماروس) بالكبيَّرة حيث قال في «الحاوية»:

واسمها يا صاح ميقاماروس　　ماروس طوْد في شَمطْرَه مأروس

وحولها خرائب كثيره　　فهؤلاء اسمهم الكبيَّره

لا كبّر الله لهم من اسما　　ولا رمى فيهم صديق مسلما

(شمطرة): (سمطرة)

لكن أكل لحم البشر كان في ذلك الوقت شيئاً مألوفاً بين سكان المدن والموانئ المشهورة التي كانت المراكب والتجار تتردد إليها، في جنوب شرقي آسيا عامة. لكن هؤلاء لا يأكلون إلاّ لحم أعدائهم حتى من

(1) سليمان بن أحمد المهري «العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية» تحقيق إبراهيم خوري (دمشق 1970) ص 69.

قومهم، فهم لا يأكلونه - كما قال بابشاد - بسبب الجوع وإنما بسبب الغيظ عليهم، لذلك يتفنون في صنع ألوان من الطعام منه، مع الخمرة.

رقي لدغ الحيات:

قال برزك: «وحدثني أبو الحسن[1] قال: حدثني محمد بن بابشاد قال: رأيت بغبّ (سرنديب) من أمر الحيات أشياء ظريفة، ومن أصحاب الرقي أمراً عجيباً. وشاهدتهم في بعض البلاد القريبة من سرنديب. إذا نشهت أحدهم أفعى، أو حية رقوه، فإن نفعت الرقية وسلم: وإلاّ جعلوه في سرير من خشب، فتركوه على وجه الماء مع الجزر في نهر لهم يجري إلى البحر، ودورهم، ودار أكبرهم على طول ذلك النهر. وقد علموا أنه لا يوضع في مثل ذلك السرير إلاّ ملسوع، فمن كان منهم يحسن الرقي أخذ السرير ورقى من فيه، فإن نفعت رقيته قام الملسوع ورجع إلى منزله برجليه، وإن لم تنفع تركه مع الماء. ولا يزال بطول البلد يأخذه واحد بعد واحد فيرقيه، ومن يحسن الرقي ونفعت رقيته قام الملسوع، وإن لم تنفع سرّحه. فلايزال كذلك مع الماء، حتى يبلغ إلى آخر البلد، فإذا لم تنفع الرقية فيه حمله الماء حتى يرمي به في البحر ويغرق، أو ينفق قبل أن يصل إلى البحر. لأنه ليس في الأمر أن يتركونه على الأرض، ولا يتمسك به أهله رجاء أن يصلح. فإن سلم رجع برجليه، وإن لم ينفع فيه الرقي فقد مضى[2]».

---

(1) أبو الحسن: يحتمل أن يكون أبا الحسن محمد بن أحمد بن عمر السيرافي. فبُزرك نقل عنه حكايات كثيرة.

(2) بُزرك، عجائب الهند، ص 121—122.

ليس هناك من شك في صحة هذه الحكاية، لكن العجيب فيها هو اتخاذ مجرى النهر وسيلة لعرض حالة الملسوع على جميع أهل بلدته، لعل أحدهم لديه علاج لحالته، فينقذه من الهلاك، فيعود ماشياً إلى أهله.

4. عبهرة الربان

«أصله من (كرمان)، وكان ببعض عراها [نواحيها] يرعى الغنم، ثم صار صَيَّاداً، ثم صار أحد بانانية مركب يختلف إلى الهند، ثم تحول إلى مركب صيني، ثم صار بعد ذلك رَبَّانا، وله في البحر طرائف، وسافر إلى الصين سَبْع مرات، ولم يكن سلك قبله إلى الصّين إلاّ من غرر، ولم يسمع أن أحداً سلكه وسلم وعاد قط، فإن سلم في المضي فهو عجب، فلا يكاد يَسْلم في العودة، وما سمعت أن أحداً سلم في الذهاب والمجيء سواه، فانه جلس في مطياله [قاربه]، وأخذ معه قربة ماء، فمكث في البحر أياماً[1]».

تصريف المركب في بحر الصين الجنوبي:

«فحكي عن شهرياري الربان، وكان أحد ربانية الصين، أنه قال: كنت أمضي من (سيراف) إلى الصين، فلما صرت بين (الصنف) و(الصين)، بالقرب من (صندل فولات)[2]، وهو رأس (بحر صنجي)، وهو بحر الصين، ووقفت الريح فلم تتحرك وسكن البحر، وطرحنا الأناجر، وأقمنا بمكاننا يومين، فلما كان في اليوم الثالث رأينا بالبعد شيئاً في البحر، فطرحت الدونيج إلى البحر، وأنفذت فيه أربعة من البانانية، وقلت: اقصدوا ذلك السواد فانظروا ماهو. فمضوا وعادوا. فقلنا: ما ذلك الشيء؟ فقالوا: عبهرة الربان على مطياله، ومعه قربة ماء. قلت

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 85.

(2) «صندل فولات»: في بعض المصادر الأخرى ومنها كتاب ابن الفقيه (صندر فولات) قد يكون تحريف (صنف فولات): جزيرة بجوار الجزء الجنوبي من ساحل (فيتنام) الشرقي.

لهم: فلم لم تحملونه؟ فقالوا: قد اجتهدنا به، فقال: لا أصعد إلى المركب إلاّ بشرط أن أكون الرَّبان فأدَبِّر المركب وآخذ أجرتي عن قيمة ألف دينار متاعاً بشراء (سيراف)، وإلاّ لم أصعد. فلما سمعنا هذا الكلام تعلقت نفوسنا بقوله، ونَزَلْتُ وجماعة من المركب إليه وهو في البحر تَرْفعه الأمواج وتضعه، فَسَلَّمنا عليه وَتَضرَّعنا إليه في الصُّعود. فقال: حالكم أقبح من حالي، وأنا إلى السَّلامة أقرب منكم، فإن دفعتم لي بقيمة ألف دينار متاعاً بشراء (سيراف)، ورَدَدْتم إليَّ أمر المركب صعدت. فقلنا: هذا مركب فيه أمتعة وأموال عظيمة، وخلق من النَّاس، ولا يضرّنا أن نعرف ما عند عبهرة من الرأي بألف دينار. وصعد والدونيج والقربة معه إلى المركب، فلما حصل فيه، قال: سلموني متاعاً بألف دينار، فسَلَّمناه إليه، فلما أحرزه قال للربان: اجلس إلى ناحية، فَتَبَاعد ذلك عن موضعه، وقال: ينبغي أن تجدوا في أمركم ما دَام علَيْكم مهلة. فقلنا: في ماذا؟ قال: ارموا الثّقل كله إلى البحر. فَرَمَيْنا نحواً من نصف حمولة المركب أو أكثر. ثم قال: اقطعوا الدّقل الأكبر. فَقَطَعْنَاه ورمينا به إلى البحر، فلما أصبح قال: ارفعوا الأناجر واتركوا المركب يسير لنفسه ففعلنا، فقال: اقطعوا الأنجر الكبير فقطعناه، وبَقِيَ في البحر، ثم قال: ارموا بالانجر الفلاني، فلم يزل كذلك حتى رمينا في البحر ستّ أناجر، فلما كان في اليوم الثالث ارتفعت سَحَابة مثل المنارة، ثم تَفَرَّقت في البحر وأخذنا الخب[1] فلولا أنَّا كنا قد رَمَيْنا بالحمولة وَقَطَعْنا الدقل لكنّا قد غرقنا من أول موجة أخذتنا، ولم يزل الخب ثلاثة أيام بلياليها والمَرْكب يصعد

(1) خب البحر: هاج واضطرب.

ويَنْزل بغير أنجر ولا شراع لا ندري كيف نمضي. فلما كان في اليوم الرابع أخذت الريح في السّكون وَتَمّ سكونها وصلاح أمر البحر في آخر النهار، وأصبحنا في اليوم الخامس والبَحْر طَيّب والرِّيح مستقيمة، فأصلحنا دَقَلاً ورفعنا الشُّرع وسرنا وسَلَّم الله ووردنا الصين. وأقمنا إلى أن بِعْنا واشترينا وأصلحنا المركب وَدَقَلاً بدل الدّقل الذي رَمَيْنا به في البحر، وخرجنا من الصين نريد سيراف وقاربنا الموضع الذي قدرنا أنّا رأينا فيه عَبْهرة واجتزنا بجزيرة وجبال. فقال عبهرة: اطْرحوا الأناجر. ففعلنا، ثم طرحنا القارب إلى البحر، ونزل فيه خَمْسة عشر رجلاً. وقال لهم: امضوا إلى تلك الموضع - وأومى إلى بعض الجبال - فهاتوا الأنجر الفلاني، فعجبنا من ذلك ولم نخالفه، فمضوا وعادوا وهو معهم. ثم قال: امْضوا إلى ذلك الجبل الآخر - وأومى إليه - فهاتوا الأنجر الفلاني. فمضوا وعادوا والأنجر معهم. ثم قال: ارفعوا الشرع. فَرَفَعْنا وسرنا. فقلنا له: كيف عرفت أمر هذه الأناجر. فقال: نعم لقيتكم في هذا الموضع في رأس الثلثين، وهو وقت مدّ الماء وقد نقص الماء، صدراً صالحاً، وكنتم في وسط الجبال والجزيرة، فأمرتكم بطرح الثقل من الأمتعة ففعلتم، ثم فكرت في أمر الأناجر فإذا حاجتنا إليها في الصِّين غير ماسة، ولم يبق في المَرْكب من الأمتعة إلاّ ما قِيْمة وزن الأناجر منه أضعاف قيمة الأناجر، فرميت بها كذلك، لأنه لم يكن بدّ من تَخْفيف المركب، فحصلت هذه الأناجر الثلاثة فوق الجبل والجزيرة ظاهرة، وحصلت الثَّلاثة تحت الماء. قلنا له: كيف استدلَّيت على هذا النّقصان

والخبّ. فقال: نعم قد جُرّب هذا البحر قبلي وَجَرَّبته، فوجدنا في رأس كل ثلاثين ينقص نَقْصاً عظيماً حتى تَنْكشف هذه الجبال، ويكون في وقت هذا النّقصان خبّ عظيم أصله في قعر البحر، فانكسر المركب الذي كنت فيه على رأس جبل من هذه الجبال، لأن النقصان لحقني، وأنا أسير عليه لَيْلاً، وسلمت في ذلك المطيال، ولو بقيتم في موضعكم لما بقيتم في البحر أكثر من ساعة، لم يجنح مركبكم قبل الخب لأنكم كنتم على الجزيرة إن جنحتم عليها انكسرتم.

وعبهرة هذا له طرائف وأخبار في البحر، وهذا الخبر من أطرف أخباره[1])).

* * *

في هذه الحكاية نرى أن (صندل فولات)، هي الحد الفاصل بين بحر صنجي أي بحر الصين، وبين بحر الصنف، فهي ((رأس بحر صنجي)) من الجنوب، البحر الذي اشتهر عند البحارة والمسافرين إلى الصين بشدة الخب، أي الأمواج الهائجة، والعواصف العظيمة. وبكثرة مضاحله، وجزره الصخرية، التي لا يظهر منها شيء أثناء المد. وقد جرب الربان عبهرة – كما تقول الحكاية – أن هذا المد ينتهي في كل ثلاثين يوماً قمرياً، وتظهر الجزر والصخور التي كان المد يغمرها، ويصاحب ذلك خب شديد. فإذا حدث أن سار مركب في هذا التاريخ فإنه يتحطم على الصخور كما حدث لمركب عبهرة، قبل أن يلتقي مركب النوخذة شهرياري.

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 85–90.

وهناك من يرى أن (صندل فولات)، الذي تقول الحكاية أنه «رأس بحر صنجي»، أي أول بحر الصين، أنه تحريف (صنف فلاو)[1]، أي جزيرة (الصنف) وهي جزيرة صغيرة بجوار الساحل الجنوبي، مما يسمى الآن بـ(فيتنام)، فعلى هذا الساحل قامت مملكة (شامبا)، وازدهرت فيها حضارة ماتزال آثارها قائمة هناك إلى الآن. وفي (الصنف) كان ميناؤها يشارك في التجارة الدولية بين الصين والمحيط الهندي. وقد طغى اسم (الصنف) على البر المحاذي لطريق هذه التجارة، من جهة الغرب، من (شامبا) إلى حد شبه جزيرة (ملقة). قال ابن ماجد: «حتى تتجاوز (الصنف) ويأتي بر (سنجافور)». أما على وجه التحديد فالصنف هي (شامبا). وكانت الطريق البحرية من (سنغافورة) إلى (شامبا) معروفة لدى البحارة العرب، حتى في أيام ابن ماجد، في القرن الخامس عشر الميلادي.

ويبدو ان اسم (الصنف) هو الذي كان شائعاً فقط عند البحارة والتجار العرب في أيام بُزرك، إذ لا نجد ذكراً لـ(شامبا) لا في حكايات بُزرك ولا في كتاب «تقويم البلدان»، الكتاب الجغرافي، الذي ذكر فيه مؤلفه أبو الفداء كل ما عرف من البلدان عند من سبقه من الجغرافيين. رغم أنه كانت في (شامبا) منذ القرن الرابع الهجري، وربما قبله، جالية من التجار المسلمين. فقد عثر في طرفها الجنوبي على آثار إسلامية يرجع تاريخها إلى العقدين: الثاني والثالث من القرن الخامس الهجري، وهي عبارة عن شواهد قبور، وأحجار، عليها كتابة باللغة العربية بأسماء

(1) حوراني، الملاحة العربية في المحيط الهندي.

أصحابها ورتبهم في الجالية، وتاريخ وفاة كل واحد منهم[1]. وكبرت هذه الجالية مع مرور الزمن، وامتزجت بالسكان الأصليين، وبعد زوال دولة (شامبا)، ودمجها في إقليم (كوشين شين) بعد سيطرة فرنسا على ما كان يعرف بـ(الهند الصينية الفرنسية) تفرق مسلمو (شامبا) بين أقاليم الهند الصينية: (كمبوديا) و(أنام) و(لاوس) و(كوشين شين)، ويعرفون حتى الآن باسم (شام). وقد أعدم كثير منهم أثناء الحكم الشيوعي في (كمبوديا). وهاجر بعضهم إلى (أندونيسيا) و(ماليزيا).

(1) حامد القادري، كفاح أبناء العرب ضد الاستعمار الهولندي في أندونيسيا، ص 30.

5. أبو الزهر البرختي

كان من عظماء أهل سيراف، وكان مجوسياً على دين الهند، وكان عندهم أميناً يقبلون قوله ويَستَوْدعونه أموالهم وأولادهم، فأسلم وحسن إسلامه وحج مع إمرأة من (جزيرة النساء).

جزيرة النساء:

«وحدثني أبو الزهر البرختي النوخذة (...) وذلك أنه سافر رجل، في مركب له عظيم ومعه فيه خلق من أخلاط التجار من كل بلد، وهم يسيرون في بحر ملاتو؟ وقد قربوا من أطراف أرض صين، وأبصروا بعض جبالها، فلم يشعروا إلاّ وريح قد خرجت عليهم من الجهة التي يَقْصدونها فلم يسعهم إلاّ الانصراف معها حيث تَوَجَّهت، وركبهم من هَوْل البحر ما لا طاقة لهم به.

ومرّت بهم الرّيح إلى سمت (سهيل)، ومن اضطر في ذلك البحر إلى أن يصير سهيل على قمة رأسه، فقد دخل بَحْراً لا رجعة له منه وتنَكّس في لجّة هابطة إلى الجنوب، مصوّبة إلى تلك الجهة، فكلّما مرت المراكب علاّ ما وراؤها من جهتنا وهبط ما بين يديها من تلك الجهة فلا يستطيع الرجوع بريح عاصف ولا غيره، وهوت في لجج البحار المحيطة، فلما رأوا أمرهم يودي إلى الدخول تحت (سهيل) ودخل عليهم الليل وأظلم وأدلهم، وحال بخار البحر ودجنته ونَدَاه وزخره، بينهم وبين النجاة،

فلم يروا ما يهتدون به، وأهوال البحر وأمواجه ترفعهم إلى السحاب وتخفضهم إلى التراب، وهم يجرون في قار وضباب طول ليلهم، وأصبح عليهم فلم يَشْعروا به لشدّة ظلمة ما هم فيه واتصال قار البحر مع ضباب الجو وغلظ الرِّيح وكدورته. فلما طال عليهم اللَّيل وهم يَجْرون في قبضة الهلكة، قد حكمت عليهم الريح العاصفة والبحار الزاخرة، والأمواج الهائلة، ومَرْكبهم ينطّ ويئن ويَتَقَعْقَع ويتتعتع، توادعوا وصَلَّى كل منهم إلى جهة على قدر معبوده لأنهم كانوا شِيَعاً، من أهل الصين والهند والعجم والجزائر واستسلموا للموت، وَجَرَوْا كذلك يومين وليلتين لا يفرّقون فيهن بين الليل والنهار، فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل رأوا بين أيديهم نارا عظيمة قد أضاء أفقها، فخافوا خوفا شديداً وفزعوا إلى ربانهم، وقالوا له: يا ربان، ما تَرَى هذه النار الهائلة التي ملأت الآفاق ونحن نجري إلى سمتها، وقد أحاطت بالأفق، والغرق أحبّ إلينا من الحريق، فبحق معبودك إلا قلبت بنا المركب في هذه اللجة والظلمة لا يرى أحد منّا الآخر، ولا يدري ما كانت ميتته، ولا يتجرع لوعة صاحبه، وأنت في حِلٍّ وبلٍّ مما يجري علينا، فقد متنا في هذه الأيام والليالي ألف ألف ميتة، فميتة واحدة أروح.

فقال لهم: اعلموا أنه قد يجري على المسافرين والتجار أهوال هذا أسهلها وأرحمها.

ونحن معشر الربانية علينا العهود والمواثيق أن لا نعرض سفينة إلى العطب وهي باقية لم يجر عليها قدر، ونحن مَعْشَر ربانية السفن لا نَطْلَعها إلاّ وآجالنا وأعمارنا معنا فيها، فنعيش بسلامتها ونموت بعطبها،

فاصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذي يصرفهم كيف يشاء.

قال: فلما أيسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل وندب كل منهم شجوه، وصار الرَّبان إذا أمر مناديه أن ينادي رجاله بِجَذْب حبل أو إرخائه، يُصْلح شأن المركب، فلا تسمع الرجال ذلك من دويّ البحر وحسّ تلاطم الأمواج وهدير الرياح في القلوع والشّرع والحبال وضجيج الخلائق، فأشرف المركب على التلف بعطلة الرّجال وعدّة المركب من غير حادث، عليهم من بحر أو ريح.

قال: وكان في المركب شيخ مسلم من أهل (قادس) من الأندلس قد طلع إلى المركب في ازدحام النَّاس عند طلوعهم ليلة السّفر، ولم يَشْعر به رَبَّان المركب، وكان في زاوية من المركب مهجورة، وهو مختف فيها خوفا أن يعلم به فيؤنب ويوبّخ، فلما رأى القوم وما نَزَلَ بالناس، وما هم عليه من الإخطار بأنفسهم ومركبهم وأنهم قد صاروا عونا مع أهوال البحار على نفسهم مسرعين لهلاكهم، رأى أن يخرج إليهم فيكون من حالة معهم ما كان. فخرج إليهم وقال لهم: ما شأنكم انفتح المركب؟ قالوا: لا. قال: فانكسر السكّان؟ قالوا: لا. قال: فركبكم البحر. قالوا: لا. قال: فما شأنكم؟ قالوا له: كأنك ليس معنا في المركب؟ أما تنظر هول هذا البحر وأمواجه وظلمة الهواء الذي لم نر معه نهاراً ولا شمساً ولا قمراً ولا نجوماً نهتدي بها، وقد دخلنا تحت (سهيل) وحكمت البحار والرياح علينا وأشد ما علينا هذه النار التي نحن نجري إليها، وقد ملأت الأفق، والغرق أهون علينا من الحريق، وقد سألنا الربان أن يُقْلب المركب بنا في البحر والظلمة لا يرى أحد منّا صاحبه ونموت

غَرَقاً ولانموت حرقاً يرى بعضنا بعضا ونسمع ما تفعل النار فيه.

فقال: أوصلوني إلى الربان، فأطلعوه إليه، فسلم عليه بالهندية فَردّ عليه. وقال له: هل أنت من التجار أم من أتباعهم، فلا نَعْرفك في رجال المركب؟ قال له: ما أنا من التّجار ولا من أتباعهم. قال: فمن أطلعك وما بضاعتك؟ قال له: أما من أطلعني فاني طلعت في جمهور الناس ليلة الإسراء، وأويت إلى مكان في المركب. قال: من أين تأكل ومن أين تشرب؟ قال: كان بانيان المركب [بحار المركب] يضع كل يوم قريبا منِّي صحفة أرز بسمن لملائكة المركب ومن منشل المركب ماء، فكنت أتقوت بذلك، وأما بضاعتي فقربة عجوة.

قال: فتعجب الربان منه واشتغل الناس بسماع حديثه عمَّا كانوا فيه من الضّجيج، وأصلح الرِّجال أدوات المركب ومشى فيهم مناد بِتَدْبِير الاقلاع واهتدى المركب. فقال الشيخ: يا ربان مال هؤلاء القوم كانوا يَبْكون ويعولون؟ قال له: أما ترى ما نزل بهم من هَوْل البحار والرِّياح والظلمة، وأشد من ذلك ما نحن مدفوعون إليه من هذه النِّار التي ملأت الأفق، والله لقد ركبت هذا البَحر وأنا دون البلوغ ومع أبي، وكان قد أذهب عمره في ركوبه، وها أنا اليوم قد رميت ثمانين سنة ورائي فما سمعت بمن سلك هذا المكان ولا خَبَّر عنه. فقال: يا ربان لا بأس عليك ولا خوف، نجَوْتم بقدرة الله، هذه جزيرة يحيط بها ويكتنفها جبال يكسر عليها الأمواج بالبحار المحيطة بالأرض، فتنظر في الليل ناراً هائلة مرجفة يخافها الجاهل، فإذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماء، وهذه النار ترى من بلد الأندلس، وقد عبرت

عليها مرة وهذه الثانية.

قال: فتباشر النَّاس، وسكنوا إلى قول الشّيخ، وتناولوا طعامهم وشرابهم، وذهب عنهم ما كانوا فيه من الغمّ والخوف، وتناقص الريح، وصار البحر رَهْواً والريح رَخْواً، وقدموا على الجزيرة مع شروق الشمس، وأصحت السماء، وأشرفوا على الجزيرة، وتخيروا مرسى كِنيْناً، ووردوا الجزيرة بجملتهم، يطرحون أرواحهم على الرِّمال ويتمرغون على الأرض شوقا إليها، ولم يبق منهم في المركب أحد. فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم نِسْوَان من داخل الجزيرة لا يحصى عددهم إلاّ الله تعالى، فوقع على كل رجل منهم ألف إمرأة أو أكثر، فلم يلبثوا أن حملوهم إلى الجبال وكلفوهم الاستمتاع بهن.

قال: فلم يزالوا على ذلك، وكل من قويت على صاحباتها أخذت الرجل منهن، والرجال يتماوتون من الاستفراغ أولاً فأول، وكل من مات منهم يتواقعن عليه (....) لنتن رائحته، فلم يبق منهم سوى الشيخ الأندلسي فانه جاءته واحدة فكانت تزوره في الليل فإذا أصبح أكنته في موضع قريب من البحر وجاءت له بشيء تقوته به، فلم يزل كذلك إلى أن انقلب الرّيح من تلك الجزيرة إلى الجهة التي خرج المركب منها من الهند، فأخذ الشيخ قارب المركب الذي يسمي الفلو ورفع فيه في الليل ماء وزاداً، فلمّا فطنت به المرأة أخذت بيده وجاءت به إلى موضع فنبشت التراب بيديها عن معدن تبر، فنقلت هي وهو منه ما يقدر القارب على حمله وأخذها معه، وأسرى عن عشرة أيام وهو بالبلد التي خرج المركب منها، فأخبرهم الخبر، وأقامت المرأة معه إلى أن تفَصّحت

وأسلمت، ورزق منها الأولاد. وسألها عن تلك النّسوان التي في الجزيرة وانفرادهم دون الرجال. فقالت له: نحن أهل بلاد واسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة، ومسافة مابين كل بلد من جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها، وكل من في أقاليمنا ومدننا من الملوك والرعايا يعبدون هذه النار التي تظهر لهم في الليل في هذه الجزيرة ويسمونها بيت الشّمس، لأن الشمس تشرق من طرفها الشرقي، وتغرب في جانبها الغربي، فيظّنون انها تبيت في هذه الجزيرة، فإذا أصبح وشرقت الشمس من جانبها الشرقي خفيت نارها وماتت وارتفعت الشمس، فيقولون: هي هي، وإذا غربت في جانبها الغربي وأمسى ظهرت النار، فيقولون: هي هي، فيعبدونها ويَقْصدونها بصلواتهم وسجودهم من سائر الجهات، ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل المرأة في بلدنا تلد أول بطن ذكرا وثاني بطن انثيين، وكذلك باقي عمرها، فما أقل الرجال في بلادنا وأكثر النسوان، فلما كثروا وأرادوا يغلبون على الرجال صنعوا لهم المراكب وحملوا منهم آلافا وطرحوهم في هذه الجزيرة، ويقولون للشمس: يا ربهم أنت أحق بما خلقت وليس لنا بهم طاقة، فبقوا فيها ويتماوتن فيها بعضهم على بعض، وما سمعنا، ولا مرّ بنا أحد من الناس غيركم، ولا يطرق بلادنا أحد على مرّ الأزمنة، وإن بلادنا في البحر الأعظم تحت (سهيل) لا يقدر أحد يجيء إلينا فيرجع، ولا يجسر أحد يفارق الساحل والبر خوفاً من أن تشربه البحار وذلك تقدير العزيز العليم تبارك الله أحسن الخالقين[1]».

---

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 19–29.

أبناء أَنْشَرْتُو:

وحدثني أبو الزهر البرختي النوخذة عن خال له يسمّى (ابن أنشرتوا)، قال: حدثني خالي عن أبيه وهو جد البَرْختي لأمه قال: أسريت في مركب لي كبير ونحن طالبين جزيرة (فنصور)، فأسقطنا الريح إلى جون أقمنا فيه ثلاثا وثلاثين يوماً في ركود لا ريح فيه ونحن متخليين على وجه البحر ولا تلحق سباكنا[1] قرار البحر على عمق ألف باع والتيار يصبي، بالمركب، ونحن لا ندري إلى أن أدخلنا التيار بين جزائر، فأسندنا المركب إلى واحدة منهن، على ساحلها نسوة يعومون ويسبحون ويلعبون، فأنسنا بهم وأسندنا إليهم. فلما قربنا منهم تهاربوا في الجزيرة. وجاءنا رجال ونساء عقّال عارفون، فلم ندر لغتهم فأشرنا إليهم وأشاروا إلينا، ففهمنا عنهم وفهموا عنا، فأشرنا إليهم أعندكم طعاماً تبيعونا؟ قالوا: نعم. فجاؤونا بالأرز الكثير والدّجاج والغنم والعسل والسمن والأدم وأشياء كثيرة من المأكولات والفواكه، فاشترينا منهم بالحديد والنحاس والكحل والخرز والسقط والثياب. وأشرنا: أعندكم بضائع نشتريها منكم. فقالوا: ما عندنا إلاّ الرَّقيق. فقلنا لهم: مبارك احضروا الرقيق، فأتونا بالرّقيق، ما رأينا أحسن منه ضحوك السن، يغنون ويلعبون ويتهارشون ويتداعبون بأبدان عبلة وأجسام كأنها الزبد نعومة، ويكادون يطيرون خفة ونشاطاً، غير أن رؤوسهم صغار، وتحت كشح كل منهم جناحين كجناحي السّلحفاة لا تغادر. فقلنا لهم: ما

(1) السّباك عند البحارة المتقدمين هو (البُلد) عند المحدثين والمعاصرين: مسبار عمق البحر؛ وهو حجر يربط بطرف حبل طويل يقاس به عمق الماء بالباع.

هذا؟ فتضاحكوا، وقالوا: أهل هذه الجزائر كلهم كذلك وما عليكم من ذلك، وأشاروا إلى السّماء، أن الله تعالى خلقنا كذلك. فأغضينا عن ذلك وقلنا هذه فرصة ورأيناها غنيمة، فاشترى كل منا بجهد ما عنده من الأمتعة ومعظمه، وفَرَّغنا المركب من البضائع وشحنّاه رقيقا وزاداً، وكلما اشترينا شيئاً جاؤونا بما هو أنظف منه وأحسن فشحنّا المركب بخلق. ما رأى الراؤون أحسن منه ولا أجمل، فلو أتم لنا لاستغنينا إلى عقب العقب.

قال: فلما حان السّفر وعصفت لنا الرياح من صوب الجزائر إلى نحو بلادنا وَشَيّعونا. وقالوا لنا: تعودوا لنا من قابل إن شاء الله.. وطمعنا وطمع ربانا في العودة بمركبه وحده بغير تجار، فكان لَيْلَه كله هو ورجاله يُوْقفهم على النّجوم ويثبتهم على منازل الكواكب وجهات الآفاق وطريق الإقلاع في المجيء والعودة، وفرحنا غاية الفرح والسرور.

وَسَرَيْنا من الجزيرة بريح عاصف من أول النهار، فلمّا غابت الجزيرة بكى بعض الرَّقيق الذي معنا فضاقت صدورنا على بكائهم. ثم قام بعضهم لبعض وقالوا: تبكون لأي شيء، قوموا بنا نرقص ونغني. فقام الرقيق جميعه يرقصون ويغنون ويتضاحكون، فأعجبنا ذلك منهم، وقلنا: هذا أصلح من البكاء، واشتغلنا كل واحد منا بشأنه، فما لهؤلاء إلاّ أن أصابوا منا غفلة وتطايروا والله في البحر تطاير الجراد، والمركب يجري في موج كالجبال كالبرق الخاطف فما أشرفنا عليهم حتى تعداهم المركب بنحو فرسخ، ونحن نسمعهم يغنون ويصفقون ويتضاحكون، فعلمنا أنهم ما فعلوا بنفوسهم ذلك إلاّ باقتدار لهم على هول ذلك

البحر، ولم يمكننا الرّجوع إليهم وأيسنا منهم، فلم يبق منهم إلاّ واحدة عند أبي في بلنج كبير [حجرة في السفينة]، فلما مضوا هؤلائك نزل أبي إلى البلنج فوجدها تريد أن تنقب وتطرح نفسها في البحر، فضبطها وقَيَّدهِا، وسرنا إلى أن دخلنا بلاد الهند فبعنا الأزواد التي كانت معنا وتقاسمنا أثمانها فصَحّ لكل أحد عُشْرُ رأس ماله.

فلما سمعوا النَّاس بأخبارنا جاءنا رجل من أهل الجزائر بعينها قد أخذ صغيرا وبقى في الهند إلى أن هرم، فقال لنا: أنتم وقعتم إلى جزائر تسمى جزائر الحوت، وهى بلدي، ونحن قوم نزل رجالنا على إناث حيوان البحر واضطجعت نسواننا لذكران الحيوان بالبحر فتنتَّج بينهم خلق مشتبهون بين هؤلاء وهؤلائك، فيجتمع المشتبهه مشتبهه، وذلك في قديم الدهور، فجئنا صابرين على طول المقام في البحار، وعلى طول المقام في البر للسِّر المشترك فينا.

وأما المرأة التي بقيت مع أبي فاستولدها ستة أولاد أنا سادسهم، وأقامت عنده ثمانية عشر سنة مقيدة. وكان هذا الشيخ الجزائري [يعني أنه من جزائر الحوت] الذي أخبرنا عن السر الذي فيهم قد قال لوالدي: لا تحل عنها فتطرح نفسها، في البحر، وتمضي فلا تراها أبدا فإنّا نحن لا صبر لنا عن الماء، ففعل بها كذلك.

ولمّا كبرنا نحن وتوفى والدنا، وكنا نلومه في تقييدها بغير علم، فلما مات ما كان لنا بعده عملا إلاّ أن أطلقناها من القيد رحمة لها وإبرارا وحنوّاً عليها، فخرجت كأنها الفرس السَّابق وانطلقنا خلفها فلم

ندركها. فقال لها بعض من قرب إليها: تمضي وتخلي أولادك وبناتك. فقالت: «أنشرتو؟» معناه: ما أعمل لهم، وطرحت نفسها في البحر، وغاصت كأقوى حوت يكون، سبحان الخالق الباريء المصّور، تبارك الله أحسن الخالقين[1]».

* * *

في هاتين الحكايتين المنسوبتين إلى النوخذة البرختي الهندي نرى الحقيقة قد امتزجت بالخرافة، وأن ما ذكر فيهما من أحداث قد جرى في رحلتين لمركبين هنديين ببحارة من الهند. والهند بلاد الأساطير، فأبو الزهر البرختي، صاحب المركب من أحفاد (أنشرتو)، تلك المرأة المولدة – كما تقول الأسطورة – من ذكر من بني آدم، وأنثى من حيتان البحر. وذلك الشيخ الأندلسي الذي سافر في المركب خفية، وكان يقتات مما تقدمه البحارة من الأرز والسمن قرباناً لملائكة المركبة، كما يعتقدون، وعاد من (جزيرة النساء) بامرأة إلى الهند، فتزوجها البرختي.

لكن هناك إلى جانب هذه الأساطير، حقائق لا يمكن إنكارها، عن قواعد الملاحة، عند العرب والهند، في عصر الخلافة العباسية، وأول ما يذكر من هذه القواعد أن الملاحة جنوباً لم تكن تصل إلى سمت نجم (سهيل) – كما نرى في الحكاية الأولى – وأن المركب إذا دفعته عاصفة إلى هذا الموضع لا يسلم من العطب. فمدار (سهيل) عند سليمان المهري، على بُعد سبع وسبعين درجة عن مركز القطب الجنوبي تقريباً، أي أن من يصل إلى هذا البُعد عن مركز القطب الجنوبي يكون نجم

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 29–35.

(سهيل) فوق رأسه. ولا يعني قول ركاب المركب: «قد دخلنا تحت سهيل»، أنهم فعلاً أصبحوا تحت نجم (سهيل) تماماً، لأن ذلك يعني أنهم دخلوا في المنطقة المتجمدة الجنوبية. ولكن ظهور هذا النجم قريباً من سمت المركب، قد جعلهم يخشون الدخول في ظلمات القطب الجنوبي.

و(سهيل) كوكب دري شديد اللمعان، من القدر الضوئي الأول، يطلع قريباً من مركز القطب الجنوبي، لذلك تسمي البحارة هذا القطب (بقطب سهيل)، وإذا توسط في مداره، فوق القطب، يقابله في الشمال نجم (الشعرى العبور) أكبر نجم يظهر في السماء، وهو يتبع في الطلوع، كوكبة (الجوزاء) أو (الجبار).

ونجد في الحكاية الأولى، أيضاً، الشروط والمواثيق التي تؤخذ على من يتولى تسيير المركب وتصريفه، من النواخذة والربابنة، حيث قال ربان المركب: «ونحن معشر الربانية علينا العهود والمواثيق أن لا نعرض سفينة إلى العطب، وهي باقية لم يجر عليها قدر.

ونحن معشر ربانية السفن، لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها، فنعيش بسلامتها ونموت بعطبها».

فارتباط الربان بالسفينة، في سلامتها وعطبها، لم يكن شرطاً يفرض عليه، ولكن كان تقليداً قديماً، مارسته ربابنة السفن، حتى أصبح تركه مخلاً بشرف البحار.

أما الحكاية الثانية فنجد فيها إشارة إلى أهم الأسس والقواعد التي

كانت الملاحة تجري عليها في المحيط الهندي، فمن أجل العودة إلى مكان جديد على الربان لابد من معرفة قياسات النجوم عنده، واتجاهات الطريق إليه. فراوي الحكاية يقول إن ربان المركب «كان ليله كله، هو ورجاله، يوقفهم على النجوم ويثبتهم على منازل القمر[1]، وجهات الآفاق، وطريق الإقلاع في المجيء والعودة».

أما جزيرة النساء فلا تذكر إلا في أساطير البحارة، كما تذكر عند بعض الجغرافيين غير المحققين، حتى ابن ماجد البحار نراه في كتابه: «كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد»، قد أخذ معلوماته عما عرف من العالم القديم، من برور القارات المحاطة بالبحار عن الجغرافيين، خاصة أبي الفداء صاحب كتاب: «تقويم البلدان» وعند ذكر (جزيرة النساء)، التي لم تذكر في كتاب أبي الفداء قال: «وأما (جزيرة الرجال) و(جزيرة النساء) و(مالقة) وغيرها، من أطراف الأرض. فلا حاجة لذكرهن، وتدقيقهن، لأن الرواة لم يذكروا لنا الخبر عنها[2]».

وتذكر (مالقة) في كتاب: «تقويم البلدان» كواحدة من ممالك الأندلس «بين مملكة (إشبيلية) و(غرناطة) على بحر (الزقاق) من جنوبي الأندلس[3]».

---

(1) في الأصل: «منازل الكواكب»، وهو خطأ قد يكون من النساخ.

(2) ابن ماجد، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، تحقيق إبراهيم خوري (مجمع اللغة العربية – دمشق) ص 277.

(3) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 175 (طبعة باريس 1840م).

حيّات أرض (تاكا)

«وحدثني أبو الزهر البرختي عن حيات بلاد الهند، فقال: حدثني رجل طبيب هندي من أهل (سرنديب)، فقال لي: هذه الحيات في أرض الهند ثلاثة آلاف ومائة وعشرون جنسا أخبثها جنس في أرض (تاكا). إذا هبت الريح من جهتهم قتلت من تَمُرّ به من جميع الحيوان: الطائر، والداب، والمنساب، عن ثلاثة فراسخ، ولذلك فإن أرض (تاكا) لا يعمرها الأقوام، وللرِّياح أيام معلومة، إن هبت الريح لهم أقاموا أيامها، وإن جاء هبوب الرِّياح من جهة أرض تلك الحيات تبادروا وركبوا الدوانيج ورحلوا إلى جزائر البحر، فإذا انقضت أيام تلك الرياح تنادوا، وعادوا، وحرثوا وزرعوا واستخرجوا المعادن، وذلك أن أرض (تاكا) هي معادن الذهب والفضة، وفي كل عام يأتيهم من داخل البرية الشرقية سيول تحمل إليهم طيباً....[1]».

* * *

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 34، موقع النقط ساقط من الأصل.

6. أحمد بن على بن منير النوخذة السيرافي

«كان أيضا من بقية النواخذة الذين سافروا في البحار، ومضى لهم الاسم والصيت في البحر[1]».

طير رخ بالهند:

«وحدثني أحمد بن على بن منير.. أن بعض شيوخ الهند حدثه بـ(سرنديب) أن مركباً كسر له، فَسِلمَ نفر من أهله في القارب، ووقعوا إلى جزيرة بقرب الهند فبقوا بها مدة إلى أن مات أكثرهم وبقي منهم سبعة، وكانوا في مدة مقامهم قد رأوا طيراً عظيماً يقع في الجزيرة، ويرعى، فإذا كان وقت العصر طار فلا يدرون إلى أين يمضي، فأجمع رأيهم على أن يتعلق واحد منهم برجيله، ليحمله لما ضاقت صدورهم وعلموا أنه لابد من الموت وتَعَلَّقت نفوسهم بأمر الطائر، وإن كان يطرحهم بقرب بلد فهو الذي يتمنونه، وإن قَتَلَهم فهو الذي يتوقعونه، فطرح واحد منهم بنفسه بين الشّجر وجاء الطائر على الرّسم فرعى، فلما جاء وقت انصرافه، تلطف الرجل في الدّنو منه وتعلق برجليه وشد نفسه مع ساقيه بقشور الشّجر، فطار به في الهواء، وهو متعَلّق بَفخذيه، وقد جعل رجليه مشتبكة برجلي الطائر فعبر بحرا، وطرحه وقت غروب الشّمس على جبل، فحل نَفْسه وسقط كالميت من التعب وكل ما مرّ به وما عاين من الأهوال، فمكث لا يتحرَّك إلى أن طلعت الشمس من غدٍ،

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 12.

فقام ينظر، فإذا راعي غنم، فسأله بالهندية عن الموضع، فذكر قرية من قرى الهند، وسقاه لبناً فتحامل حتى دخل القرية. ولم يزل الطائر ينقل القوم من تلك الجزيرة على تلك الصورة حتى اجتمعوا بأسرهم في تلك القرية، وتسبّبوا إلى النّفوذ إلى بعض بلاد الهند التي يوجد فيها المراكب، وركبوا في مركب، وأنهم حَدّثوا بأمر كسر مركبهم والجزيرة التي وقعوا إليها ومقدار مسافة ما حملهم الطائر إلى تلك القرية، فوجدوه زيادة على مائتي فرسخ[1]».

* * *

(انظر «طير رخ سفالة الزنج» فصل:2، ابن لاكيس).

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 12—14.

7. الربان عمران الأعرج

«وحدثني بعض الربانية، يقال له عمران الأعرج، أنه خرج من (عُمان) في مَرْكب مع عدة مراكب إلى (جدة) في سنة خمس وعشرين وثلثمائة، فوقع علينا في بعض الأيام رِيْح عظيم فرَمَيْنا بعض الحمولة، وتَخَلَّف بعض المراكب وأصيب البعض، وسرنا فلما صرنا بين (كمران) و.....[1]. وقع بنا خبّ عظيم، وريح عظيم هائل مختلف، فقطعت الأناجر، ولم تضبط المراسي، وحملتنا الرياح وكان معنا عدة مراكب من (عدن) و(غلافقة) و(عَشْر)، ومنها جلبة جديدة حسنة من (غلافقة)، فرأيتها وقد طرحتها الرِّيح والأمواج على جبل في البحر، ونزلت الأمواج عنها فانقلبت، فعَهْدي بالأمتعة والنَّاس يتساقطون إلى البحر من فوق الجبل، وغرقت فما سلم منها أحد[2]».

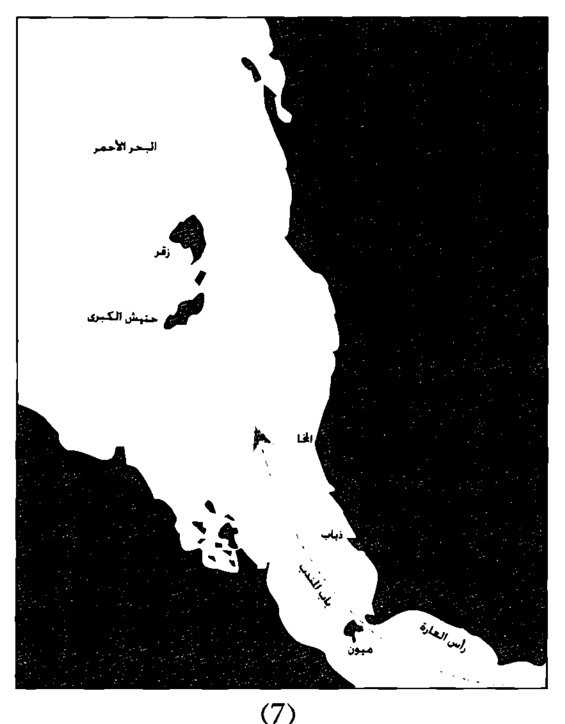
* * *

عمران الأعرج يحتمل أنه كان من ربابنة عُمان أو اليمن، فهم أخبر بالملاحة في البحر الأحمر، أخطر بحار العالم في وجه الملاحة لكثرة شعابه ومضاحله. ورغم أن حكايته هذه قصيرة إلا أنها تمدنا بمعلومات لانجدها في حكايات بُزرك الأخرى، مثل أصناف السفن، وأسماء أشهر موانئ اليمن على هذا البحر، وعلى (خليج عدن) الذي كان يعرف بـ(الخليج البربري)، فمن أصناف السفن القديمة الجلبة، وقد اشتهر البحر الأحمر بصناعتها. وكان الكبير منها ينقل الجمال قديماً

(1) موضع النقط ساقط من الأصل، وهو اسم مكان.

(2) بُزرك، عجائب الهند، ص 93–94.

من الحجاز إلى الساحل السوداني، قال ابن بطوطة: «ثم ركبنا البحر من (جدة) في مركب يسمونه الجلبة، وكان لرشيد الدين الإلفي اليمني، الحبشي الأصل. وركب الشريف منصور بن أبي نمي في جلبة أخرى، ورغب مني أن أكون معه، فلم أفعل لكونه كان معه في جلبته الجمال فخفت من ذلك[1]».



(7)
مخاطر الملاحة في البحر الأحمر

وخطورة الملاحة في الجزء الجنوبي من البحر الأحمر نجد أمثلة عليها

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ج1/154.

في كتب تاريخ اليمن. ففي كتاب «العقود اللؤلؤية» للخزرجي: «أن مركبين من مراكب المجوّرين، انسلخوا على جبل (الزُّقَر)[1]»، أي أن الموج رفعهما إلى سفح الجبل ثم انحسر عنهما فانكسرا. فجبل (زقر) – كما يقول ابن ماجد – عليه الظل خصوصاً بالليل[2].

(1) الخزرجي، علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج 88/2.
(2) ابن ماجد، كتاب الفوائد، ص 350.

8. يزيد العُماني ناخوذة الزنج

«وحدثني يزيد العُماني، ناخوذة الزنج قال: رأيت في نواحي بلاد الزنج جبلين عظيمين بينهما وادٍ وفيه آثار النار وعظام نخرة وجلود محترقة. فسألت فقيل لي: هذا وادٍ يَجْري فيه وقتا في السنة نار، فربما جاءت النار وفي الوادي غنم ومواشي ترعى، ولم تشعر أربابها ورعاتها لذلك فتَحْرقهم، وأنّ النار تجيء في الوادي أيّاما مثل السيل إذا جرى في الأودية[1]».

* * *

ليس في هذه الحكاية شيء عجيب كما نرى؛ فهي تصف بركاناً يزداد حدة في فترة من السنة، فتسيل منه الحمم إلى الوادي فتهلك ما فيه من الحيوان.

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 150–151.

9. مردان شاه ناخوذة بلاد الفلفل

«ومن طريف أخبار البحريين ماهو مشهور معروف ما حدثني عن مردان شاه، أحد نواخذة بلاد الفلفل وغيرها، وعاش سبعين سنة ولا ولد له ثم ولد له ولد فسماه المرزبان – فاشتدت محبّته له وسروره به فكان يحمله معه في المركب مع والدته، فإنه في بعض الأيام يسير في بحر (بارنان)[1] يريد (كولم) إذا التمس من والدة المرزبان وهي في البلنج ابنه فدفعته إليه، فلم يزل يرقصه ويقبله، إلى وقت المغرب، ثم اشتدت الرّيح واندق دقل القنو[2]. فدهش وأراد أن يدفع الصَّبى إلى أمه فسقط من يده في البحر، واشتدت الريح واشتغل بأمر المركب إلى صلاة الغداة. فلما أسفر الصبح سكن البَحْر واستوى أمر المركب، وجلس، فقال لأم الصبي: ناوليني المرزبان. فقالت: هو معك منذ أول اللَّيل، فنتف لحيته وَدَقَّ رأسه بالخشب وفتش المركب. فقال صاحب السكان: اعلم أن السَّكان ثقيل على يدي من أول الليل، فانظروا فيه، فنظروا في سورة السكان[3]، مثل مِسْمار ليس يبرح، فهبط رجل وأصعد الصبي، فإذا هو صحيح لم يصبه شيء، فدفعه إلى أمه فسَقته لبناً فشرب، وله من العمر خمسة عشر شهراً.

فقال لي إسماعيلويه: رأيت المرزبان هذا وقد نيف على السبعين سنة، وقد تَقَدَّم إلى قاضي عُمان في يوم واحد ثلاثة عشر كرة، يحلف

(1) (بارنان): قد يكون في اسم هذا البحر تحريف. ويجعله بُزرك محاذياً لساحل ما كان يعرف عن البحارة العرب بـ(المليبار) أو (المنيبار).

(2) «دقل القنو»: يحتمل أن يكون الدقل الصغير المعروف بـ(القلمي) في مؤخرة المركب.

(3) «سورة السكان»: قد يكون الجزء المحيط بخشبة السكان كالسور من أعلاه في المؤخرة.

الناس على أموالهم أيمانا كلها كاذبة. وحدثني خلق من الناس: أنه لم يكن في ربانية البحر أظلم من المرزبان هذا، وأنه كان يعامل التجار في مركبه ما يعامل به أصحاب الشروط[1]».

* * *

في هذه الحكاية نرى الصورة الحقيقية للناخوذة، والربان، ساعة الشدة، ساعة تعرض المركب لخطر الغرق في العاصفة، والأمواج الهائجة، ففي خضم مصارعة الأمواج وضع النوخذة ابنه على مؤخرة المركب، ليقبض خشبة أو حبلاً – كما يبدو – فانشغل بعد ذلك، مع البحارة، في مغالبة الرياح والأمواج ونسي تماماً، أثناء ذلك، كل شيء عن ابنه المرزبان، وأنه وضعه على مؤخرة المركب، بدلاً من أن ينزل به إلى بلنج أمه، فتدحرج الطفل بفعل تمايل المركب، وهوى إلى سورة السكان. ولأن أباه عند هبوب العاصفة، كان عائداً به إلى أمه، فقد حسب بعد هدوء العاصفة أنه سلّمه إليها. فبادر بطلبه منها.

(1) بُزرك، عجائب الهند، ص 94–95. «أصحاب الشروط»: الشرطة.

تجار البحر وسفّاره

1. أبو محمد الحسن بن عمرو بن حمويه ابن حرام بن حمويه النجيرمي بالبصرة

عن الحسن بن عمرو هذا أخذ بزرك – كما سنرى من الحكايات عن عجائب الهند، أكثر مما أخذه منها عن غيره، وكلها تقريباً حكايات متناقلة، عن أحداث لم يشهدها الحسن بنفسه. وهو من (البصرة)، وعمله فيها غير معروف، فكلمة «نجيرمي» قد دخلها التحريف فصارت مجهولة المعنى، وقد لاحظ ذلك محقق الكتاب. فلا يصح أن نقول أن الحسن هذا كان «نجيرمي بالبصرة». ونلاحظ أن أقدم حكاية له يرجع تاريخها إلى سنة 288هـ.

إسلام ملك الرّا:

«وبعد فإن الله تبارك اسمه وجلّ ثناؤه، خلق العجائب عشرة أجزاء فجعل تسعة منها في ركن المشرق، وجزءاً في ثلاثة أركان الأرض، التي هي المغرب والشمال والجنوب، ثم جعل في الصين والهند ثمانية أجزاء منها وجزءا في باقي المشرق.

فمما في الهند ما حَدَّثنا به أبومحمد الحسن بن عمرو بن حمويه ابن حرام بن حمويه النجيرمى، بالبصرة قال: كنت بـ(المنصورة) في سنة ثمان وثمانين ومائتين، وحَدَّثني بعض مشايخها ممن يوثق به أن ملك (الرا) وهو أكبر ملوك بلاد الهند والناحية التي هو بها بين (قشمير

الأعلى) و(قشمير الأسفل)، وكان يسمّى مهروك بن رائق، كتب في سنة سبعين ومائتين إلى صاحب المنصورة، وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يسأله أن يفسّر له شريعة الإسلام بالهندية، فأحضر عبد الله هذا رجلاً كان بالمنصورة أصله من العراق حدّ القريحه حسن الفهم شاعراً، قد نشأ ببلاد الهند وعرف لغاتهم على اختلافها، فعرَّفه ما سأله ملك (الرا) فعمل قصيدة وذكر فيها ما يحتاج إليه وأنفذها اليه، فلما قرئت على ملك (الرا) استحسنها، وكتب إلى عبد الله يسأله حَمْل صاحب القَصيدة فحَمَله إليه، وأقام عنده، ثلاث سنين، ثم انصرف عنه، فسأله عبد الله عن أمر ملك (الرا) فشرح له أخباره، وأنه تركه وقد أسلم قلبه ولسانه، وأنه لم يُمْكنه إظهار الإسلام خوفاً من بطلان أمره وذهاب ملكه. وكان فيما حكاه عنه أنه سأله أن يفسر له القرآن بالهندية ففسره له، قال: فانتهيت من التفسير إلى سورة «يس» قال ففسرت له قول الله عز وجل: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾[يس: 79–78]، قال: فلما فَسَّرت له هذا وهو جالس على سرير من ذهب مرصّع بالجوهر والّدر لا تعرف له قيمة، قال لي: أعدْ عليّ، فأعدت فنزل عن سريره ومشى على الأرض، وكانت قد رشّت بالماء وهى ندية، فوضع خدّه على الأرض، وبكى حتى تَلَوَّث وجهه بالطين، ثم قال لي: هذا هو الرّب المعبود والأول القديم الذى ليس يشبهه أحد، وبنى بيتا لنفسه، وأظهر أنّه يخلو فيه لمهمه، وكان يصلّي فيه سِرّاً من غير أن يطلع على ذلك أحد، وأنه وهب

له في ثلاث دفعات ستمائة مَنّ من ذهب[1])).

* * *

لا نرى في هذه الحكاية شيئاً عجيباً غير خوف ملك (الرا) من انكشاف أمر اعتناقه للدين الإسلامي على شعبه، وزوال سلطانه، والمسلم الصادق لا يخشى ذلك. ومملكة (الرا) يجعلها بزرك بين (قشمير الأعلى) و(قشمير الأسفل)، بينما نجد هذا الموقع، عند الجغرافيين، لمملكة (ملتان)، وأن أهلها هنود، وبها صنم يعظمه الهنود ويحجون إليه، وأن ما يحمل إليه من المال يأخذه ملك (ملتان) ((وهو مسلم))[2]. فهل كان هذا الملك هو الملك الذي أسلم على يد موفد صاحب (المنصورة) – كما قال الحسن بن عمرو رواي الحكاية لبزرك.

و(قشمير الأعلى) عند بزرك هي (قشمير الداخلة) عند الجغرافيين، وهي (قشمير) أو (كشمير) في الوقت الحاضر. أما (قشمير الأسفل) فهو (قشمير الخارجة) عند الجغرافيين، وهي ما يعرف اليوم بـ(بنجلاديش) ففيها مصب نهر (كنك) Ganges المقدس عند الهندوس[3].

أما (المنصورة) فكانت قاعدة بلاد (السند)، وعلى خليج من مصب نهر السند، الذي كان يعرف بنهر (مهران).

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 2–4.

(2) أبو الفداء، تقويم البلدان، ص 350.

(3) نفس المصدر، ص 360.

المحافظة على سلامة الممتلكات:

«وحدثني: أن لأهل (قشمير الأعلى) يوم عيد، في كل سنة، يجتمعون فيه، ويصعد خطيبهم على منبر ومعه جرّة من طين غير مطبوخ، فيخطب، ثم يقول: وقوا أنفسكم وأموالكم، واحفظوها، ويعظهم ثم يقول: انظروا إلى هذه الجرة من طين، وقيت وحفظت فبقيت، وأن لتلك الجرّة، على ما يقولون أربعة آلاف سنة[1]».

في جزائر (واق واق) الصّين:

وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو: أن بعض النواخذة حدثه أنه جَهَّز مَرْكباً له إلى (الزابج)، فوقعوا إلى قرية من قرى جزائر (الواقواق)، لأن الريح طرحتهم إليها، فلما رآهم أهل القرية هربوا في الصّحارى..بما أمكنهم أن يهربوا به من أموالهم، وأن أهل المركب أيضاً تهيبوا النزول، لأنهم لم يعرفوا البلد، ولا عرفوا سبب هرب القوم ما هو، ومكثوا في مركبهم يومين لا يجيبهم أحد، ولا يخاطبهم على وجه ولا سَبَب، وأحدروا رجلاً من أهل المركب يعرف لغة الواقواقيين، ومضى مغرراً، وخرج من القرية إلى الصحارى، فوجد رجلاً قد صعد شجرة وأخفى نفسه فيها، وكلمه ورفق به فأطعمه قِطْعة تمر كانت معه، وسأله عن سبب هَرَبِ أهل القرية وأمّنه على نفسه ووعده بشيء يَهَبَه له إن صَدَقه. فقال له: إن أهل القرية لما بصروا بالمركب قَدّروا أنهم يريدون أن يغيروا

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 4–5.

عليهم وهربوا مع ملكهم في الصّحارى والغياض.

قال: فجاء بالرجل إلى المركب، وأنفذوه مع ثلاثة نفر من أهل المركب إلى ملك القوم برسالة جميلة، وأمنوه على نفسه وأهل بلده وحَمَّلوه إليه ثوبين وشيئاً من التَّمر والسقط هدية، وطابت نفسه وعاد مع سائر أهل البلد، وأقاموا معهم وتَسّوقوا بما في المركب من الأمتعة، ولم يمض عشرون يوماً حتى وافى أهل قرية أخرى مع ملكهم لمحاربة هذا الملك. فقا ل لهم الملك: اعلموا أن هؤلاء القوم قد جاءوا لمحاربتي وأخذ مالي لأنهم قدروا أنه قد صار إليَّ من هذا المركب جملة...، فعاونوني عليهم وادفعوا عن أنفسكم وعنّي.

قال: وصَبَّحنا القوم على باب القرية وخرج إليهم هذا الملك وسائر أهل القرية، مع بانانية المركب ومقاتلته، ومن نشط للحرب من تجاره وأهله. وكان في جملة أهل المركب رجل أصله من العراق خبيث، فلما اشتدّ الحرب بين القوم، أخرج الرجل من حجزته ورقة كبيرة فيها حساب له ونشرها ورفعها بيده إلى السّماء، وتَكَلَّم بكلام يرفع به صوته.

قال: فلما رآه القوم تركوا الحرب وجاءت طائفة منه إليه، وقالوا: لا تفعل هذا ونحن ننصرف عنكم ولا نأخذ شيئاً، وجعل بعضهم يقول لبعض: لا تحاربوا، فان القوم قد رفعوا أمرهم إلى ملك السماء والسَّاعة يغلبونا ويقلتونا، ولم يزالوا يَضْرعون إلى الرجل حتى ردّ الرقعة إلى حجزته، وانصرفوا بعد أن أثخنوا القول كأني والقوم يملكون القرية

وما فيها.

قال هذا النوخذة: ولما كفينا أمرهم رجعنا إلى بَيْعنا وشرائنا وتَسَوّقنا على الرَّسْم واستخدمنا ملك القوم، ولم نزل نحتال على أهل القرية ونَسْرق أولادهم ونشتري، بعضهم من بعض بالفوطة والتمر، والشيء اليسير، حتى صار معنا في المركب نحو مائة رأس من الرَّقيق كباراً وصغاراً. فلما مضت علينا أربعة أشهر، وقرب وقت الرّجوع، قال لنا القوم الذي اشتريناهم وسرقناهم: لا تحملونا واتركونا في بلدنا فإنه لا يحلّ لكم أن تستعبدونا وتفرّقوا بيننا وبين أهلنا. فلم نلتفت إليهم، وكانوا في المركب منهم مقيد ومنهم مَشْدود، وصغارهم مطلقون، وفي المركب البانانية، خمسة أنفس يرون أمر المركب ويقومون بإطعامهم، وبقية أهل المركب في القرية، فعمدوا إلى البانانية في بعض الليالي فشدّوهم بالحبال، ورفعوا الأنجر والشروع وسرقوا المركب في جوف الليل، وأصبحنا فلم نجد المركب، فبقينا وقد طلع بنا ليس معنا شيء ولا لنا حيلة إلاّ الشيء اللطيف الحقير الذي في القرية مما يخلف في الأيام، ولم يجئنا أحد بخبر للمركب، فأقمنا ضرورة شهورا إلى أن بنينا قاربا لطيفاً يحملنا وخرجنا على أقبح صورة فقراً[1]».

* * *

هذه الحكاية ليس فيها شيء لا يقبله العقل. فالمركب قد وقع في مرسى قرية من قرى قوم عرفوا عند البحارة بـ(الواقواق). وهم هنا (واق واق) الصين، أو شرقي المحيط الهندي، وهم عند ابن الفقيه

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 8–12.

المتقدم ذكره، يختلفون عن «واق واق اليمن»، وذكرنا أن هذا الاسم ربما أخذ من نبرة (الوقوقة) الشائعة في كلامهم.

وكان سبب هروبهم من القرية، حينما رأوا المركب يدخل المرسى، أنهم ربما حسبوه مركب أعدائهم، الذين جاءوا فيما بعد يريدون الاستيلاء على ما حصلوا عليه من المركب من الأمتعة. وأن الحروب بينهم وبين القبائل المجاورة لهم لم تتوقف.

لكن العجيب في الحكاية أن يتوقف المعتدون عن القتال حينما رأوا العراقي – كما تقول الحكاية – يرفع ورقته الكبيرة إلى السماء، فهذا دليل على أن المعتدين ربما كانوا من البوذيين. فاسم بلاد (الزابج) التي كان المركب يقصدها، يأتي في الترتيب بعد اسم الهند، وبعده إلى الشرق يأتي اسم (قمار) وبعده (الصنف)، ثم (الصين). وتشمل هذه المناطق الآن، كل من (بورما) و(تايلاند) أو (سيام) وشبه جزيرة (ماليزيا)، و(كمبوديا) و(فيتنام). فبلاد (الزابج) قد تكون (تايلاند) بحدودها القديمة، وسنأتي على وصفها في حكاية تالية. أما (الصنف) فقد عرفت أيضاً بمملكة (شامبا) بالقسم الجنوبي من (فيتنام). ولأن هذه البرور محاطة بالبحر، من بعض جوانبها، فإنها تعتبر جزراً، عند البحارة.

وقول راوي الحكاية أن بحارة المركب، ومقاتلتهم، عاونوا أهل القرية في قتال أعدائهم، دليل آخر على أن المراكب التجارية في رحلاتها في عرض المحيط، كانت تجهز قديماً بالمقاتلين أيضاً.

سمكة تنطح مركب:

وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو: أنه سمع بعض البحريين يحكي: أنه خرج في مَرْكب من (عدن) إلى (جَدَّة) وأن سمكة نطحت بحذاء (زيلع)[1] المركب نَطْحة منكرة لم يشك أهل المركب أنها قد كسرته، وانحدر الربانية إلى الجمة[2]، فلم يجدوا الماء قد زاد على رسمه، فعجبوا من ذلك إذ كانت هذه النطحة العظيمة لم تؤثر، فلما وصلوا إلى جدة نجلوا [أفرغوا] المركب، وأنزلوه وتركوه إلى البر، فَوَجَدوا رأس السَّمكة في جوف المركب قد سجن [نشب]، وَسَدّ الموضع، حتى ليس فيه خلل، وإذا هى نطحت المركب، ولم يمكنها الخلاص فانقطعت من حلقها، وبقى رأسها في موضعه.

وذكر لي: أنه لم يزل يرى السمك الكبار والصغار يصاد فيشقّ جوفه، فيوجد فيه سمك فيشقّ جوفه فيوجد فيه سمك ،وهذا يتّفق أن تأكل السمكة سمكة قد أكلت سمكاً[3]».

* * *

من المعلوم أن المراكب العربية، كانت كغيرها من مراكب المحيط الهندي، كالهندية، والفارسية، غير مسمرة وإنما كانت تخرز، أي تخيط بخيوط مفتولة من ليف جوز الهند. ثم تجري بعد ذلك جلفطتها، أي سد الشقوق بين ألواحها بالقطن. أو ما شاكله في ذلك، وأخيراً يطلى

(1) (زيلع): ميناء قديم على ساحل الصومال الشمالي مقابل لمضيق (باب المندب).

(2) (الجمة): الماء المتجمع من الرشح المتسرب من ألواح السفينة من الداخل إلى قعرها.

(3) بزرك، عجائب الهند، ص 16.

غاطسها بالنورة، وما علا الغاطس يطلى بدهن الحوت.

ولم تعرف مراكب هذا المحيط المسامير، إلا بعد وصول مراكب أوروبا إليه، في القرن السادس عشر الميلادي. ولم يكن بناء المراكب المخيطة إلى هذا التاريخ لأن أصحابها كانوا - كما يرى البعض - يعتقدون بوجود حجر المغناطيس في هذا المحيط وأن المركب المسمّر إذا اقترب منه تطايرت المسامير منه إلى الحجر، وإنما لأن المركب المسمّر إذا صدم الحجارة تشققت ألواحه بفعل المسامير، «وإذا كان مخيطاً بالحبال أعطى الرطوبة فلا ينكسر[1]». واستناداً إلى هذه الحقيقة يمكن القول بأن السمكة حينما نطحت المركب قطعت الحبال التي تربط ألواح المركب في موضع النطحة فانحشر رأسها بين الألواح فقطعت أطرافها حلق السمكة.

سمك يشبه ابن آدم:

«وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو عن من حدثه من شيوخ البحر: أنه دخل (الأغباب)، وجالس بعض ملوك (الأغباب)، فقدم إليهم طعاماً يأكلونه، وكان فيما قدم غضارة [قصعة] فيها ألوان مطبوخة، برؤوس وأيدى، وأرجل تشبه رؤوس الصِّبيان، وأيديهم وأرجلهم.

قال: فعافت نفسي ذلك الطعام، ورجعت عن أكل طعامه، بعد أن كنت قد انبسطت، ففطن الملك لذلك، فأمسك، فلما كان من الغد

(1) ابن بطوطة، الرحلة، ج 2 ص 124 (طبعة القاهرة 1967).

حضرت عنده، فكلم أصحابه بشيء، فوافوا بسمك يحملونه، لولا أني رأيته يضطرب اضطراب السَّمك وعليه صدفه، شككت في أنه ابن آدم. فقال لي الملك: الذي كرهت بالأمس أن تأكله هو هذا، هو أطيب من سمكنا وأعذب وأخف، وأقل ضراً.

قال: فكنت آكله بعد ذلك[1]».

* * *

(الأغباب): هي (أغباب سرنديب)، قد سبق ذكرها، وقلنا أنها قد تكون اسماً لأحد الساحلين المطلين على جزيرة (سرنديب)، أي (سيلان)، من شبه القارة الهندية، الشرقي أو الغربي منهما. وتطلق (الغُبّة) عند البحارة على الخليج، والمياه العميقة. والخلجان كثيرة على هذين الساحلين. وقد يكون السمك المذكور في الحكاية، من الأنواع المنقرضة من الأسماك.

استعمال ريشة طائر كدَنّ:

«وحدثني الحسن بن عمرو وغيره عن جماعة المشائخ بالهند من أمر طيور الهند، والزابج، وقمار، والصنف، وغيرها من نواحي الهند بأمر عظيم، وأكبر ما رأيت من ريش الطُّيور قطعة من أسفل ريشة طائر أرانيها أبو العباس السِّيرافي طولها نحو ذراعين، قَدَّرنا أَنَّها تسع قِرْبة ماء. وحدثني إسماعيلويه النوخذة: أنه رأى أسفل ريشة طائر ببعض

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 38–39.

بلاد الهند، عند رجل من كبار تجارهم، كانت إلى جانب داره يصب فيها [الماء] كالدّن العظيم، فتعجبت من ذلك، فقال لي: لا تعجب من هذا، حَدَّثني بعض نواخذة الزنج أنه رأى عند ملك (سرة) أصل ريشة يسع خمسة وعشرين قربة ماء[1]».

* * *

هذه الحكاية تثبت أن المتقدمين من البحارة، كانوا يعتبرون البلدان، الواقعة بين الهند والصين، من ساحل (سيام) غرباً، إلى ساحل (الصنف) أو (فيتنام) شرقاً – يعتبرونها من نواحي الهند، وليس من نواحي الصين. وهذا ما يفهم من قوله: «طيور الهند، والزابج، وقمار، والصنف، وغيرها من نواحي الهند».

كما نفهم من تقدير وسع الجزء الأسفل من ريشة الطائر من الماء، أنهم كانوا يستعملون أصول ريشه، أواني لحفظ الماء، وغرفه، وشربه. لكن تقدير وسعها من الماء وغيره – كما جاء في الحكاية – قد شط عن الحقيقة.

قنطرة من ضلع سمكة:

«قال أبو محمد الحسن بن عمرو، شاهدت من أضلاع السمّك ضلعاً حمله الينا بعض أرباب المراكب، فقطع منه قطعة من جانبه الغليظ نحو خمسة أذرع، فَطَرحْنَاه على نهر على باب بستان لنا بالجزيرة، فقام

(1) برزك، كتاب عجائب الهند، ص 62–61.

مقام القنطرة، وكان طول ما بقي منه نحو عشرين ذراعاً.

وفي البحر سمك يحارب السمك ولا يثبتون له، وله خراطيم تعمل كالمناشير، إلاّ أنه من الجانبين مثل أسنان المنشار، فإذا ضرب السّمك قَطَعَه، فإذا مات هذا السمك أو صيد أخذ أهل تلك الناحية هذه الخراطيم التي كالمناشير يستعملونها في الحرب بينهم، فتعمل عملاً عظيماً أحدّ من السيوف[1]».

* * *

هذا السمك هو سمك القرش (أبو منشار).

سلحفاة كجزيرة:

«وكنت أسمع بأمر السلاحف فأستظرفه، وأنكره لما يحكى مما لا يَقْبله العقل، فحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو: أنه سمع بعض شيوخ المراكب يحدث: أن مركبا خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحي، فذهب من يد صاحبه بقوة الشرتا وعاب المركب، فقدموا إلى جزيرة صغيرة لم يجدوا فيها ماء ولا شجرا ودفعتهم الضرورة إلى المقام فيها، فَفَرَّغوا حمولة المركب إلى الجزيرة وأقاموا مدة حتى أصلحوا العيب وردّوا الحمل إلى المركب وعَزَمُوا على الخطوف، فاتفق لهم يوم نوروز فجمعوا من خشيبات معهم وخوص وقماش وأوقدوه، فتحركت الجزيرة من تحتهم، وكانوا بقرب الماء فرموا أنفسهم إلى الماء وتعلقوا

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 61–62.

بالقارب والدونيج، وغاصت الجزيرة، فلحقهم من اضطراب البحر بحركتها ما أشرفوا على الغرق وسلموا بعد تعب شديد وهول عظيم، وإذا بها سلحفاة قائمة على وجه الماء، ولمّا أحسّت بحرّ النار ولدغها هربت.

وسألت عن السبب في ذلك فقال: إن السلحفاة لها أياما في كل عام تطفو فيها على وجه الماء على سبيل الاستراحة من طول مقامها في كهوف الجبال، وفي البحر غابات وشعارى وأشجار هائلة أهول وأعظم من شجرنا فوق الأرض، فتخرج على وجه الماء وتمكث أياماً وتسدر كالسّكران، فإذا رجعت إليها نفسها وسئمت ما هي فيه غاصت، وربما اجتمع الذكر والأنثى فيكون بينهم السفاد، وهما طائفان على وجه الماء[1]».

* * *

«الشرتا»: ريح قد تكون الشمالية الشرقية أو الجنوبية الغربية.

«الخطوف»: الاقلاع، وهي بهذا المعنى عند البحارة إلى اليوم.

«الشعارى»: الأشجار الملتفة.

«تسدر»: السادر من لا يبالي بما يصنع.

«يوم نوروز»: أول يوم من السنة البحرية.

أما الحكاية فكل ما جاء فيها عن البحار وأعماقها ونباتاتها، وعن

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 36–38.

طبيعة السلاحف وسلوكها، باستثناء تقدير حجمها، فهو حقيقي، أما تقدير حجمها بالجزيرة فلا يقبله العقل، وهي بذلك تشبه حكاية سمكة حكاية السندباد الأولى.

حية تأكل فيلة:

«وخبرني أبو محمد الحسن بن عمرو عن بعض النواخذة: أنه كان يَسير في مَرْكب، فاشتَدّت عليه الرّيح وأخذه الخبّ، فلجأ إلى خور لاح له فدخله فأقام به يومه وليلته، فلما كان من غد اجتازت لهم في البَرِّ حَيَّة هائلة المنظر عظيمة لا تقاس بشيء لكبرها، ثم نزلت إلى الخور فعبرت إلى الجانب الآخر كأنها البرق لسرعتها، ثم صعدت إلى الناحية الأخرى، فلما كان بعد العصر عادت فعَبَرت الخور على رفق فلم تزل على هذا خمسة أيام تجيء في كل يوم غدوة فتعبر وتعود بعد العصر. فلما كان في اليوم السادس قال النوخذة للبانانية: انزلوا إلى البر وانظروا إلى أين تمضي هذه الحية. فنزلوا بعد انصرافها في اليوم السادس إلى البر، ومشوا في تلك الأرض نحو ميل، فإذا هم بأجمة وغيضة ومستنقع ماء مملوء بأنياب الفيلة كباراً وصغاراً، فجاؤوا بالخبر إلى الرَّبَّان فنزل معهم في غد، ووقف عليه وعادوا إلى المَرْكب، ولم يزالوا في نقل الأنياب بعد أن تنصرف الحية وإلى وقت مجيئها، حتى حملوا شيئاً كثيراً يعظم مقداره، ورموا من المَرْكب بمقدار ما حملوا مما لا يسأل عنه ولا قيمة له.

وخرجوا من الخور بعد أن أقاموا فيه نَحْواً من عشرين يوماً، وإذا

بتلك الحية كانت تأكل تلك الفيلة وتبقي أنيابهم.

وسألت إسماعيلويه النوخذة عن هذا الحديث في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، وقد كنت سمعت به فحدثني به، وقال: بلغني وهو صحيح. وفي البحر ألوان الحيّات إلاّ أن فعلها في الماء ضعيف، وأشد الحيّات ما كان في الجبال والفيافي والأرض المعطشة والبعد عن المياه. وفي جبال عُمان حَيَّات تقتل لوقتها، وفيما بين صحار وهي قصبة عُمان وبين جبال اليحمد، موضع لا يسلكه أحد، فيه واد يسمى وادي الحَيَّات، قيل إن فيه حَيَّات مقدارها شِبْر ودون ذلك تَجْمع الواحدة رأسها مع ذنبها وترتفع إلى الفارس، فإن نهشت قَتَلَتْ للوقت، وان نفخت أَعْمَتْ وقتلت. فإذا سلك المسافر تلك الطريق تقافزن عليه من كل جهة فلا تُخْطِئه، وذلك طول الطريق، فتُرك سلوكها[1]».

* * *

«خَوْر»: شَرْم: لسان من البحر داخل في البر.

(جبال اليَحْمَد): بالحجر الغربي من عُمان، واليحمد، من قبائل عُمان، تولوا إمامة عُمام من سنة 177هـ إلى سنة 280هـ.

وملاحظاتنا على هذه الحكاية أن البحارة لم يشاهدوا الحية وهي تصرع الفيلة وتبتلعهم، بل إنهم لم يشاهدوا الحية – كما تقول الحكاية– إلا حين عبورها الخور في الغدو والرواح. أما اعتقادهم بأن الحية كانت تبتلع الفيلة، وتبقي على أنيابها، فيرجع سببه إلى تلك الأكوام التي

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 47–50.

رأوها مبعثرة في أحد المستنقعات بالغيضة والتي من المحتمل أن تكون لصيادي الفيلة، جمعوها هناك، ثم وقعوا فريسة للوحوش الضارية، قبل أن ينقلوها إلى سوق تجارة العاج، أو يبيعوها لأصحاب المراكب.

أما الحيات الصغيرة القاتلة التي قال إسماعيلويه لبزرك أنها موجودة في صحاري عُمان ووديانها فخبرها صحيح، وهي موجودة حتى اليوم، في جميع أرجاء شبه جزيرة العرب، وهي حيات يسميها بعضهم (أبو شبر)، لأن طولها غالباً لا يزيد على شبر واحد.

نقل تجارة القُسْط عبر نهر مهران (السند):

«وحدثني الحسن بن عمرو أنه رأى أهل (قشمير) الأعلى[1] وبينهم وبين (المنصورة) مسيرة سبعين يوماً في البر، ينحدرون من مهران من (قشمير)، وهو يجري كما يجري دجلة والفرات في وقت المدود على أعدال القسط.

وقال لي إنهم يعبئون القُسط في الأعدال، في كل عدل سبعمائة، وثمانمائة منّ، ويجلّدونه ثم يجعلون فوق الجلد القار فلا ينفذه ماء، ولا غيره، ويقرنون الأعدال ويشدونها، ويوطئون عليها ويجلسون فيها، وينحدرون في مهران، فيصلون إلى فرضة (المنصورة) في أربعين يوماً. ولم يلحق القُسْط شيء من الماء البتة[2]».

(1) في الأصل «الأسفل» وهو خطأ، قد يكون من الناسخ. انظر حكاية إسلام ملك الرا، ص 123.
(2) بزرك، عجائب الهند، ص 103–104.

منابع نهر السند، المعروف قديماً بنهر مهران، موجودة في (قشمير) أو (كشمير) المعروفة الآن، وهي عند القدماء (قشمير) العليا أو الداخلة، تمييزاً لها عن (قشمير) السفلى أو الخارجة، ومن هناك ينحدر مهران إلى (المنصورة)، حيث ينهي رحلته في البحر، و(المنصورة) قد تكون في موقع (كراتشي) في الوقت الحاضر، أو قريبة منه.

والمسافة من (قشمير) إلى (المنصورة)، يقطعها المسافر في سبعين يوماً سيراً أو ركوباً على الدواب. لكن تجار القُسْط، وهو «عود يُجاء به من الهند يجعل في البخور والدواء[1]»، وهو ما يعرف الآن بالصندل، كانوا يقطعون هذه المسافة في أربعين يوماً، على ظهور أعدال القُسْط، التي ينحدر بها النهر إلى (المنصورة).

والعجيب في هذه الحكاية هو نقل هذه التجارة عبر النهر، أي جعل النهر ينحدر بها إلى المكان المقصود. وجَعْل أعدالها مراكباً لأصحابها، أي أصحاب هذه التجارة.

من عادات الهند الغريبة

البلاوجرية:

«ومن أخبار الهند في سننهم الظريفة، ما حدثني به الحسن بن عمرو أنه سمع شيخاً عالماً بسير الهند يقول: إن بعض ملوك الهند الكبار، كان جالساً يأكل وبإزائه ببغاء في قفص معلق، فقال لها: تعالي فكلي

(1) انظر المعجم الوسيط ج 2.

معي. فقالت له: أفزع من السنور. فقال لها: أنا بلاوجرك، وهو بكلام الهندي: إني أفعل بنفسي مثل ما يصيبك. وتفسير هذه اللفظة هو ما أذكره: وذلك أن الملك من ملوك الهندي يجيء إليه من الرجال عدة، على حسب محلّه وجلالة قدره، فيقولون له: نحن بلاوجرك، فيطعمهم الأرز بيده، ويعطيهم التانبول بيده، فيقطع كل واحد منهم الخنصر من أصابعه، ويضعها بين يديه. ثم يكونون معه حيث سلك، يأكلون بأكله، ويشربون بشربه، ويتولون إطعامه، ويستقضون سائر أحواله، فلا تدخل إليه حظية، ولا جارية، ولا غلام إلا فتشوه، ولا يفرش له فراش إلا فتشوه، ولا يقدم له طعام ولا شراب إلا قالوا للذي أحضره: كل منه أولاً. وما أشبه ذلك، من سائر الأشياء، التي يخاف على الملك منها. فإن مات قتلوا أنفسهم، وإن أحرق نفسه أحرقوا أنفسهم، وإن مرض عذبوا أنفسهم لمرضه، وإن حارب، أو حورب، كانوا حوله ومعه. ولا يجوز أن يكون هؤلاء البلاوجريه إلاّ من علية أهل المملكة، ومن يرجع إلى نجدة وبسالة وشهامة، وله رواء ومنظر. فهذا معنى البلاوجرية.

فلما قال الملك لها [للببغاء]: أنا بلاوجرك، نزلت من القفص وجاءت فجلست على الخوان لتأكل، فقصدها السنور فقطع رأسها، فأخذ الملك بدن الببغاء فجعله في صينية، وجعل عليه الكافور، وحوله الهيل، والتانبول والنورة والفوفل، وضرب الطبل، ودار في البلد وفي عسكره، والصينية في يده. ثم كان يوجّه بالصينة كل يوم، فيطوف بها في البلد مدة سنتين. فلما طال ذلك اجتمع عليه البلاوجرية، وغيرهم من أهل مملكته، فقالوا له: هذا قبيح، وقد طال الأمر فيه، فإلى متى

تدافع، إما أن تفي وإلا فعرّفنا حتى نعزلك، ونقلب ملكاً غيرك، لأن في الشرط أنه إذا قال: أنا بلاوجرك، ثم وجب عليه حكم فدافع به، أو نكل عنه صار بَهَنْدا، والبهندا عندهم هو الذي لا يجوز عليه الحكم لقلّته ومهانته، وسقوطه، مثل المغني، والزامر، وما أشبه ذلك، والملك ومن دونه في ذلك سوا إذا نكل عن واجب.

فلما رأى هذا، جمع العود والصندل والسليط، وحفر حفيرة، وجعل ذلك[1] فيها وأحرقه بالنار، ثم رمى بنفسه فيها فاحترق، واحترق بلاوجريته، ثم بلاوجرية البلا وجرية، يعني أتباع الأتباع، فرموا نفوسهم معه، فاحترق في ذلك اليوم نحو ألفي نفس معه. وكان أصل ذلك قوله للببغاء: أنا بلاوجرك[2]».

* * *

فالملك قد تعهد للببغاء بأن يكون بلاوجر لها، إن قتلها القط، أي يقتل نفسه. وإذا نكث هذا العهد، يصير بَهَنْدا أي مهيناً، ساقط القدر بين قومه وإن كان ملكاً، فيحق لقومه بعد ذلك أن يختاروا ملكاً غيره، وتصير أتباعه مهانين مثله.

موكب ملوك سرنديب:

«وحدثني أن الملوك (بسرنديب) ومن يجري مجراهم، يحملون في

(1) يعني الصينية التي كان يحملها كل يوم بيده وعليها بدن اللبغاء والكافور والتانبول، وغيره.
(2) بزرك، عجائب الهند، ص 115–118.

الهندول، وهو مثل محفّة، على أعناق الرجال، وكرندة من ذهب فيه ورق التانبول وحوائجه يحملها غلام آخر، والغلمان والأصحاب معه. ويطوف في البلد، أو يمضي في حاجة، وهو يمضغ التانبول، ويبصق في المبصقة، فربما جاءه البول وهو في مسيره ذاك، فيخرج من الهندول، ويبول في الطريق، أو السوق، أو حيث اتفق له. وهو مع ذلك سائر ليس يقف. فإذا فرغ من بوله ردّ إلى ثيابه ولم يمسحه[1]».

البول أنظف من الماء الذي غسل به الفم أو اليد:

«وحدثني. قال: رأيت بـ(سندان) رجلاً من الهند، قد اجتاز بدار فانصب عليه وعلى ثيابه بول من تلك الدار، فوقف وصاح بهم: هذا الذي صبّ عليّ ماء من غسل اليد أو غسل الفم؟ وهو عندهم أقذر ما يكون. فقالوا له: هذا بول صبي، بال الساعة. فقال: (كنّا). بمعنى جيّد، ومضى. وعندهم أن البول أنظف من الماء الذي غسل به اليد، والفم».
«وحدثني: أن الواحد من الهنود يتغوّط وينزل إلى الثلاج، وهو بركة الماء المنصب من الجبال والصحارى، في أوان الأمطار والسيول، حتى يغتسل فيه ويستنجي فإذا تنظف، تمضمض بالماء، وخرج من الثلاج، فمج الماء من فيه إلى الأرض، لأن عنده أنه إذا مجّ الماء من فيّه إلى الثلاج أفسده[2]».

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 118.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 118—119.

تحديد رسوم السلعة بعدد الضرب عليها:

«وحدثني عمن دخل (سرنديب) وخالط أهلها: أن من رسوم سلطانها في معاملته، أشياء منها أن له منظرة على الشط، يضرب فيها على الأمتعة[1]».

(1) نفس المصدر، ص 119.

2. أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر السيرافي

سمك الوال:

«وحدثني أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر السيرافي: أنه رأى بعُمَان في سنة ثلثمائة سمكة وقعت ببعض سواحل عُمان وجَزَر الماء عنها فَصِيْدَتْ، فَسُحبت إلى البلد، فركب أحمد بن هلال الأمير والعسكر معه، وحضر الناس للنظر إليها، وكان الفارس يدخل من فكها ويخرج من الجانب الآخر وهو راكب لِعظَمِها، فانها ذُرِعت فكان طولها زيادة على مائتي ذراع وارتفاعها نحو خَمْسين ذراعاً، وأنه بيع من دُهن عينيها على ماقيل ببضعة عشر آلاف درهم.

وحدثني إسماعيلويه النوخذة: أن هذا السمك كثير ببحر الزنج وبلجّة (سمرقند)، ويقال له (الوال) وهو بِكَسْر المراكب مولع، فإذا تعرض للمركب ضربوا الخشب بعضه ببعض، وصاحوا وضربوا الطبول، وأنه ربما نفخ الماء فيرتفع مثل المنار، ويبين من بعد مثل شُرُع المراكب، وأنه ربما لعب بذنبه وأجنحته فيرى من بعد، أيضا مثل شُرُع القوارب[1]».

* * *

(الوال): نوع ضخم من سمك القرش، كان معروفاً في مياه البحر

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 14–15.

الأحمر وما كان يعرف بالخليج البربري، والمعروف الآن بخليج عدن، وفي بحر الزنج. ويذكر إسماعيلويه أنه يوجد أيضاً في غبة (سمرقند) وهي عند بزرك، تلي بحر (هرقند) شمالاً. وكانت البحارة تخافه، لأنه مولع بمهاجمة المراكب وتحطيمها، فكانوا إذا رأوه يضربون الطبول بشدة، ويصيحون جميعاً صيحات عالية، حتى يبتعد عنهم.

3. أبو الحسن علي بن شاذان السيرافي

قرية أهلك أهلها لحم طائر مسموم:

«وحدثني أبو الحسن علي بن شاذان السيرافي قال: إن بعض أهل (شيراز) حدثه أن بالقرب من (شِيْراز) قرية خربها طائر.

قال: فقلت له كيف خربها؟ فقال: حُدِّثْنَا أن طائرا سقط في بعض الأيام على سطح دار في القرية فخسف السطح وسقط إلى أسفل الدار، فصاح من في الدار وهربوا منه فاجتمع أهل القرية فدخلوا فوجدوا الطير قد ملأ الدار، فلم يتمكنوا من أخذه فأثخنوه بالضَّرب وكان ثقيلا في الأصل فلا يمكنه النهوض، ثم ذبحوه وقَطَّعوه في الدار واقتسموا لحمه، وأخذ كل من كان في القرية من الرجال نحو سَبْعين رطلا إلى نحو ذلك، وعزلوا من لحمه نحو مائة رطل لوكيل القرية، وهو نازل في تلك الدَّار التي وقع فيها الطائر، وكان قد خرج عنها قبل ذلك بيوم مع ثلاثة نفر من أهلها، ومضوا في حاجة لصاحب القرية.

وطبخ أهل القرية اللحم في بقية يومهم وأكلوه مع عيالهم وصِبْيانهم، فأصبح جميعهم مرضى، ووافى الوكيل فعرف الصُّورة فتوقَّى هو ومن كان معه أكل اللَّحم، فلما مضت أربعة أيام أو خمسة ماتوا حتى لم يَبْق منهم أحد ممن أكل لحم الطائر إلاّ مات، وفرغت القرية، وخرج الوكيل عنها، وخربت فلم يعد إليها أحد، فوقع لنا أن هذا الطاير من طيور

الهند أكل حيواناً من ذوات السموم فاشتعل السُّم في جسمه، فحمل نفسه في الجو، وسار في لَيْل فوقع إلى هذه القرية وقد ثخن ولم يبق فيه نهوض فسقط[1]».

* * *

قد تكون الحكاية صحيحة، لكن ما لا يقبله العقل هو تقدير حجم الطائر. وقد أشرنا في مقدمة الكتاب إلى وجود المبالغة في تقدير أحجام الحيوانات في كتاب بزرك، إلى حد لا يقبله العقل.

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 62–64.

4. البلوجي المتطبب في عُمان

«وحدثني البلوجي المتطبب بعُمان قال: كنت بـ(التيز) وقعنا إليها بالتواهية فتركنا المركب، ونجلنا الحمولة، وأقمنا ننتظر (الشرتا). فبينما نحن كذلك يوماً من الأيام، إذ وافت امرأة لها قدّ تمام وجسم حسن، ومعها شيخ أبيض الرأس واللحية ضعيف الجسم نحيف. فقالت: أشكو إليكم هذا الشيخ وكثرة مطالبته لي. وإني ليس أطيقه. فلم نزل نرفق بها إلى أن وفقنا أن يصطلح في اليوم دفعتين وفي الليل مثله. فلما كان بعد أيام عادت إلينا، فشكت مثل ما شكت أولاً. فقلنا له: يا هذا الرجل أمرك عجيب،. في ......[1] خبرك.

قال: كنت في مركب فلان في سنة كذا، فأصيب، وتخلصت مع جماعة من أهل المركب على الشراع، فوقعنا بجزيرة فمكثنا أياماً لم نطعم شيئاً حتى أشرفنا على التلف، ثم وقعت سمكة ميتة قد قذفها الموج إلى الساحل، فتحامى القوم أكلها، خوفاً أن تكون أكلت شيئاً من السموم فحمل نفسي الجهد الذي بي على أكلها، وقلت إن تلفت استرحت مما أنا فيه، وإن عشت كنت قد شبعت لوقت آخر. فأخذتها، والقوم يمنعوني وجعلت آكلها غير مشوية، فلما حصل لحمها في جوفي، التهب في ظهري مثل النار، ثم صار بطول ظهري كعمود من نار، وانتشر على بدني وأتعبني. فأنا منذ ذاك الوقت وإلى يومي هذا على هذه الصورة. وكان له منذ أكل السمكة سنين كثيرة[2]».

---

(1) ساقط من الأصل.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 180–182.

- (البلوجي): البلوشي: نشبة إلى (بلوشستان) أو (بلوخستان): المنطقة الجنوبية الغربية من باكستان.

- (التيز): ميناء كان مشهوراً بساحل (مكران)، جنوبي إيران.

- (التواهية): الرياح التي تكون غير ملائمة في مهبها لاتجاه السفينة فتجعلها تتوّه في أحد المراسي، أي تتوقف، حتى يعود موسم الرياح الملائمة لمجراها[1].

- (الشرتا): قد تكون الرياح الموسمية الشمالية الشرقية التي تسافر بها المراكب من (مكران) (والسند) إلى الجنوب والغرب، وتعرف عند البحارة أيضاً بالأزيب.

(1) انظر: «الفوائد» لابن ماجد، ص 312 و313، تحقيق إبراهيم خوري (طبعة دمشق).

5. العباس بن ماهان هنرمن (صيمور)

«ومن الأخبار الظريفة ما حدثني به العباس بن ماهان هنَرْمن (صيمور): أن بَعْض التجار أخبره عن نفسه أنّه جَهّز مَرْكباً من (سندان) أو (صيمور) – الشك مني – إلى عُمان. وأنه سَلّم إلى وكيله في المَرْكب خَشَبة طويلة من الساج عليها علامة وقال له: بع هذه، واشتر بثمنها كذا وكذا من السّقط وكتب له بذلك تَذْكرة، وخَطَف المركب، فلّما كان بعد شَهْرين أو زيادة عليها، وأنا جالس في منزلي، وإذا برجل قد وافى فقال لي: قد دَخَلت الخور خَشَبة طويلة عليها اسمك، فقمتُ أعدو وليس عقلي معي فأنظر، فإذا الخشبة بِعَيْنها، فلم أشك أن المركب انكسر في البحر لأنها خشبة طويلة تحت الخشب، فلم يمكن إخراجها من المركب في وقت الخبّ وطرح المتاع إلى البحر، وزال الشكّ عنّي في أن المركب أصيب، فجاء النّاس فعزُّوني وتعزَّيت عن المركب وما فيه، وعدتُ إلى شغلي وليس عندي البَتَّه شكّ في أنّه تلف لأنه ما جاءنا من البحر أحد عنده خبر. فما مضى إلاّ شهران أو نحوهما حتى جاءني البَشير، فقال: مركبك قد طلع، فقمتُ مبادراً فإذا بالمَرْكب قد شارف البلد ونزل الوكيل منه، وجاءني، فسألته عن الخَبَر فقال: سلامة وعافية. فقلت: هل ذهب منكم شيء أو طرحتم إلى البحر شيئاً. فقال: لم يذهب منّا خلالة[1] فحمدت الله كثيراً، فقلت له: ما فعلت تلك الخشبة الفلانية. فقال: بعتُها بنيف وثلاثين دينارا واشتريتُ لك بالثمن...، وكثر تعجّبي من ذلك ثم تَحَاسَبْنا فحاسبني على ثمنها. فقلت: لابدِ أن

(1) «خلالة»: الحبة من الرطب.

تصدقني عن هذه الخَشَبة وعزمت عليه. فقال لي: إني لما حَوَّلت جميع ما في المركب إلى الساحل وقع بعُمان خبّ عظيم في البحر، فحملت الأمواج الأخشاب إلى البَحْر، وقلب البحر الرّمل على السَّاحل فغطى ما شاء الله أن يغطيه من الأخشاب، فلما كان من الغد جمعت الرِّجال وطلبنا الأمتعة، فلم نفقد شَيْئا غير الخشبة الطَّويلة، فقلت لعلّ الرَّمل قد سفا عليها فغَطَّاها، فاستأجرت من حفر في السَّاحل ليطلبها فما وقعنا لها على خبر، وإذا الأمواج قد قذفتها إلى البحر فعادت إلى صاحبها، وهذا من أطرف ما سمعتُه في هذا المعنى[1]».

* * *

(هنرمن): قاضي المسلمين في الهند – كما سنرى في الحكاية التالية. والعجيب في حكاية الخشبة هذه أن تعود بها الأمواج من عُمان إلى (سندان) أو (صيمور).

هنرمن المسلمين بـ (صيمور):

«وحدثني أنه كان (بصيمور) رجل من أهل (سيراف) يقال له العباس ابن ماهان، وكان هنرمن المسلمين بصيمور، ووجه البلد، والمنضوي إليه من المسلمين، فدخل بعض بانانية المراكب، وكان من أهل الفجر، فمر بـ(صيمور)، فرأى فيها صنماً على صورة جارية، في نهاية الحسن، فطلب غفلة من القوم وتقدم إليها فأنزل بين أفخاذها، واجتاز به أحد

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 144–146.

من القوم، ففزع وتباعد. وفطن به القيّم، فتقدم إلى الصنم فوجد بين أفخاذه ماء، فتعلق بالرجل، ورُفع من ساعته إلى الملك بصيمور، وعرف الصورة وأقر الرجل بما فعل. فقال [الملك]: ما ترون؟ فقالوا: يطرح للفيلة حتى تدوسه. وقال آخر: يقطع قطعاً. فقال: لا يجوز هذا. فإنه من العرب. وبيننا وبينهم شروط. ولكن يمضي واحد منكم إلى العباس بن ماهان، هنرمن المسلمين فيقول له: ما حكم الرجل منكم إذا وجد في مسجد من مساجدكم بامرأة؟ وانظروا ما يقول فافعلوا. فمضى إليه أحد الوزراء واستفتاه، فأحب العباس بن ماهان أن يعظم أمر الإسلام عندهم، فقال: إذا وجدنا أحداً، على هذه الصفة قتلناه، فقتلوا الرجل. فاتصل الخبر بالعباس، وكيف جرت هذه القضية، فخرج عن (صيمور) سراً من الملك، خوفاً أن يمنعه عن الخروج عن بلده، لمحله وموضعه[1]».

* * *

كان هروب العباس من (صيمور) خوفاً من المسلمين، لأنه أخطأ في حكمه، قبل أن يستوضح حقيقة القضية، فالمسلم لا يقتل بما فعله الباناني، أي البحار، بالصنم. وخرج سراً من (صيمور) خوفاً أن يبقيه سلطانها قضاياً للمسلمين بها.

ووجود قاضٍ خاص للمسلمين في (صيمور)- إحدى موانئ ساحل الهند الغربي- دليل على سعة النشاط التجاري للمسلمين، من العرب والفرس، في ذلك العصر في الهند.

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 142-144.

6. محمد بن مسلّم السيرافي

«وحدثني محمد بن مسلم السيرافي، وكان مقيما بـ(تانه)، نيفا وعشرين سنة، وقد سافر إلى أكثر بلاد الهند، وعرف أحوال أهلها ومعاملتهم مَعْرفة جيدة، ثم إن اثني عشر نَفْسا جاءوا إلى (صَيْمور) و(تانه)، فقبضوا على رجل من التُّجار هندي له أب يملك مالاً عظيما والأب شديد المَحبَّة له، لا ولد له سواه، فقبضوا عليه في وسط منزله، وطالبوه بِعَشْرة آلاف دينار أو نحو ذلك، وكان هذا بعض ما يملكه أبوه، فوجه إلى أبيه يعرفه ما نزل به ويسأله أن يشتريه ويخلصه منهم. فجاء إليهم فكلمهم ورفق بهم ليأخذوا منه ألف دينار أو نحو ذلك فأبوا، وقالوا: لا نأخذ إلاّ عشرة آلاف دينار. فلما رآهم على هذه الحالة مضى إلى الملك وَعَرَّفه القضية، وقال: هذا شيء لا دواء له وَمَتَى لم يقع بهؤلاء القوم نكاية لم يكد أحد أن يقيم عندكم. فقال له: كيف نَصْنع؟ وإن قتلناهم قتلوا ابنك. فقال له: كيف العمل؟ قال: قتلهم سهل عليّ، وإنما أخاف أن يقتلوا ابنك، ولا ولد لك غيره. فقال: ما أبالي هؤلاء يَطْلبون مالاً عظيماً، ولا يجوز لي أن أفقر نفسي وأخلص ولدي بأي وجه، أيها الملك نجمع الخشب حول الدار، ونسد بابها ونُضْرمها بالنَّار عليهم. فقال له: يحترق ابنك وعيالك. فقال: احتراقهم أهون عندي من ذهاب مالي. فوَجَّه الملك وسَدّ باب الرجل، وضرم الباب بالنار، فاحترق القوم وولده وعياله، وجميع ما كان في الدار[1]».

* * *

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 152–153.

ليس في هذه الحكاية ما يثير العجب والاستغراب، غير تضحية التاجر بأولاده في سبيل المال.

7. عبد الواحد بن عبد الرحمن الفسوي

«وحدثني عبد الواحد بن عبد الرحمن الفسوي – وهو ابن اخي أبي حاتم الفسوي، وقد سافر سنين كثيرة في البحار – أن الهند كانت تشد شعورها مثل القلانس على الرؤوس، وكانت سيوفها مستقيمة قائمة، فوقع بين طائفة منهمٍ وبين طائفة أخرى حرب، فاستظهرت إحداهما على الأخرى، فتَحكّموا عليهم، وقالوا: ما نرجع عنكم إلاّ أن تجعلوا شعوركم ساجدة لشعورنا، وسيوفكم ساجدة لسيوفنا. فصارت الفرقة المستظهر عليها تشدّ شعورها منكوسة، وسيوفهم مقوسة، وهي القراطل، فالرسم باقٍ إلى اليوم على هذا في تلك الطوائف[1]».

* * *

طائفة (السيخ)، إلى الآن، تشد شعورها إلى أعلى، وهي لا تحرم أكل اللحم بخلاف بقية الطوائف الهندية. ومن (السيخ) معظم أفراد الجيش الهندي.

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 148–149.

8. علي بن محمد بن سهل المعروف بـ(سرور)

«وحدثني على بن محمد بن سهل المعروف بسرور، وقد دخل (تتبه) ودبابد هذه الدور بها راكبة على الماء وسائر أهلها بهم الشبكرة صغيرهم وكبيرهم لكثرة أكلهم الغيلم، وهو ذكر السلاحف، وأنّ كلّ واحد منهم يشدّ من باب منزله إلى الماء حَبْلا في وتد، فإذا اصفرّت الشمس أخذتهم الشبكرة، فيخرج الواحد من بيته ويمسك الحبل إلى الماء ليقضي حاجته، ويتَطَهّر ويعود إلى منزله، فلا يزال كذلك إلى الغد من ضَحْوة النَّهار حتى تنبسط الشمس ويضيء النهار.

وأن مجّان الغرباء إذا دخلوا بلادهم أخذوا حَبْل هذا فجعلوه مشدوداً على باب هذا، وحبل هذا على باب هذا، فيخرج الواحد منهم إلى الماء ويعود إلى منزل الآخر فيدخله، فيقع بينهما الشَّر، ويقول له: دخلت بيتي متعمِّداً[1]».

* * *

مثل هذه البيوت مايزال بناؤه منتشراً في الشرق الأقصى، وهي من الخشب، تقام على ضفاف الأنهار، في المدن التي تمر بها الأنهار عامة.

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 149–150.

9. يونس بن مهران السيرافي

«حدثني يونس بن مهران السيرافي التاجر، وقد كان دخل (الزابج) قال: رأيت في البلد فيه مهراجا الملك بالزابج من الأسواق العظيمة ما لا يحصى وعددت في سوق الصيارفة بهذا البلد ثمانمائة صيرفي سوى ما في البلد من الصيارف المتفرقين في الأسواق. وحكى من أمر جزيرة (الزابج)، وعماراتها، وكثرة البلدان والقرى فيها ما لا يقع عليه وصف[1]».

* * *

ذكرنا من قبل بلاد (الزابج)، وقلنا إنها من البرور المليّة عند البحارة، أي برور القارات، وتلي الهند شرقاً، ويأتي بعدها بر (قمار) وهو بر العود الأصلي ويليه بر (الصنف) وبعده الصين. ورأينا أن (الزابج) قد يكون ما يعرف قديماً بسيام، وحالياً بـ(تايلاند). ولأن (قمار) اشتهرت بجودة عودها فهذا الوصف ينطبق على بر (كمبوديا). أما بر (الصنف) فهو (فيتنام) حيث قامت مملكة (شامبا). هذه هي البلدان التي عرفت عند البحارة العرب بعد الهند، من غير جرز (أندونيسيا) وخليج البنجال. وهذه البرور يسميها ابن بطوطة: (مل جاوه) وقد زار (قاقلة) أشهر موانئها.

والمعروف أن محلات الصرافة قديماً، كانت بمثابة المصارف في الوقت الحاضر، وكثرة عددها في (الزابج) دليل على سعة النشاط التجاري

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 187.

فيها، في ذلك الوقت.

حكايات لم يذكر بزرك

أسماء رواتها

هذا الفصل

في الكتاب حكايات لم يذكر بزرك أسماء من رووها له، فرأيت أن أضعها في هذا الفصل، وأن أجعلها في مجموعات، حسب تصنيف موضوعاتها، مع الإشارة إلى مواضعها من صفحات الكتاب، وشرح ما يصعب فهمه من ألفاظها وعباراتها، ومدى قبول العقل لها:

السمك:

«وحُدِّثت عن بعض العراقيين ممن يضبط: أنه رأى باليمن عند بعض إخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه وبقي عظمه صحيحاً، فدخل الرجل من إحدى حدقتيها، وخرج من الجانب الآخر وهو قائم من غير أن ينحني.

وكان حمل في سنة عشر وثلاثمائة من عُمان إلى المقتدر من ذلك السمك، وأن فك سمكة رفع من الروشن ولم يدخل من الأبواب وحدثني أن هذه السمكة التي حمل فكها إلى بغداد نزف من عينها خمسمائة جرة أو زيادة عليها دُهْناً[1]».

* * *

ذكرنا من قبل أن حيوانات البر والبحر انقرض كثير منها، وما بقي منها حتى الآن، يحتمل أنه كان أكبر حجماً من حجمه في الوقت

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 15.

الحاضر، بسبب تغير البيئة. لكن لا يعقل، في هذه الحكاية أن يتسع ثقب عين السمكة لرجل قائم. وأن يبلغ ما نزف من عينيها من الدهن خمسمائة جرة.

- (الروشن): يطلق عليه بعضهم الآن (الروشان)، وهو بناء خارج من أعلى البيت، يستشرف منه على ما حوله.

سلوك الحيتان تجاه المراكب

«وحدثني بعض الربابنة: أن سمكة سارت مع مركبه بنواحي اليمن يوماً وليلتين وبعض يوم، لم تفارقه ولم تتقدم عنه، ولم تتأخر عنه قدر مسيرهم معها زيادة على مائة وسبعين فرسخاً، وانها كانت بطول المركب سواء، وكان طول مركبه خمسين ذراعاً بذراع العمل، من مشعر الأبط إلى طرف الأصبع الوسطى، فسألته عن السبب في ملازمة دواب البحر مع المراكب ومحاذاتها، فقال: ذلك يختلف منها، فمنها ما يحاذي المراكب ليسقط منها شيء فتلتقمه أو تكون قد وقعت قبل ذلك بمركب قد عطب فنالت منه، فصارت إذا رأت مركبا حاذته، طمعا أن يحدث منه ما حدث من غيره، وَظَنّاً منها أن المراكب كلهم يكونون كما وجدت في الأول، فصارت كأنها ضارية على ذلك.

ومنها ما يرى المركب فيتعجب من شكله ويظنه حيوانا بعضه في الماء وبعضه في الهواء، فيمرح معه ويجاريه، عشقا له وتأنّسا به مدة مدى قوته واستفراغ نشاطه إلى أن يعيا فيفارق، ولا صبر للحيوان على

مضاهاة الحمار. ومنها ما يجاري المركب على سبيل المغايرة والمعاندة والمقاواة، فإذا أعيى وقصر ورأى المركب تتقدمه رجع إليه فحمل عليه حمله واحدة، فان سلم وإلا فنسأل الله العافية. ومنها ما إذا رأت المركب لا يحول بينها وبينه شيء لشدة ضراوتها وجسارتها ودربتها على المراكب، فتحمل عليه حَمَلات حتى تَقْلِبَه، فتلتقط ما فيه لعادة واستمرار، نسأل الله العافية.

ومنها ما إذا رأى المركب، فَرَّ منه وَهَرَب وذعر، خوفاً على نفسه واستيحاشاً منه، وأخلاقها تختلف باختلاف مواضعها المسلوكة المعهودة بعبور السفّار والصيادين، وقرب السواحل المعمورة والبحار المنقطعة المهجورة والبعد عن السَّواحل المعمورة، وعمق البحار وعدم البر والجزائر والسواحل، وهو عالم آخر تبارك الله أحسن الخالقين[1]».

* * *

في هذه الحكاية نرى أن معدل طول مركب الربان، راوي الحكاية لبزرك، هو تقريباً مائة وخمسون قدماً، لأن ذراع العمل يحسب من مشعر الإبط إلى طرف الإصبع الوسطى، عن ثلاثة أقدام. وهذا الطول يوازي تقريباً طول مركب (البغلة)، ذلك المركب الذي ظل سيد المراكب التجارية حتى نهاية العقد الثالث تقريباً من القرن العشرين، قبل ظهور البوم الكويتي، الذي حل محله بعد هذا التاريخ بسبب سرعته التي تفوق سرعة (البغلة).

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 17–19.

أما وصفه لسلوك الحيتان تجاه المراكب، فوصف بحار طويل الخبرة به، ونرى سلوك حوت (الدلفين) في قوله: «ومنها ما يرى المركب، فيتعجب من شكله، ويظنه حيواناً، بعضها في الماء وبعضه في الهواء، فيمرح معه ويجاريه».

كِنْعدَة تخرق بطن راكب في مركب:

«وحدثني بعض أهل المراكب العارفين عن شيخ من شيوخ الربانية أنه كان خارجاً من (سيراف)، وكان معه في الكنبار رجل في مطيال، فخاصم في بعض الأيام رجلاً من أهل المركب وافترى عليه وأفرط، وأمسك الرجل عنه لأنه كان غريباً لم ينصره أحد ولم يعاونه، وكان المفتري قد ركب معهم بوسيلة شفاعة وعناية قوية.

قال: فما مضى بعد الخصومة ثلاث ساعات حتى طفرت من البحر كنعدة، فبقرت برأسها بطن الرجل الجالس في المطيال، وتَخَلَّصت من الجانب الآخر فسقطت في البحر، وكفنوا الرجل ورموا به إلى الماء[1]».

* * *

- (كنعدة): نوع من السمك يقفز فوق الماء له رأس طويل مدبب، ويصل طول السمكة ذراعين وأكثر.

العجيب في هذه الحكاية أن تقتل الكعندة المفتري في المركب.

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 26.

سمك له وجه إنسان:

«وحدثني بعض من دخل (الزَّيْلع) وبلاد الحبشة: أن في بحر الحبشة سَمَكاً له وجه كوجه بني آدم، وأجسامهم لها الأيدي والأرجل، وأن الصَّيادين المتعرّبين، الفقراء المتطرفين في أطراف السَّواحل المهجورة والجزائر والشعاب والجبال التي لا تسلك، المعالجين فيها طول أعمارهم، إذا وجدوا ذلك السمك المشابه لبني آدم اجتمعوا به فَيَتوالد بينهم نسل شبيه لبني آدم، يعيش في الماء والهواء، وربما كان الأصل في هذا السمك من بني آدم اجتمعوا بجنس من أجناس السّمك ويتوالد بينهم هذا السَّمك الشبيه لبني آدم، ثم كذلك على مرّ الدهور والأزمنه كما يجتمع الآدمي ببعض الوحش مثل الضبع والنمرة وغيره من حيوان البر فيتوالد بينهم القردة والنسانيس، وغير ذلك مما يشبه ابن آدم، وكما تجتمع الخنازير والجواميس، وكان بينهم الفيلة، وكما يجتمع الكلاب والماعز وكان بينهم الخنازير، وكما يجتمع الحمير والخيل وكان بينهم البغال.

ولو ذهبنا نعدّ ما تنتج من الاجتماع للأجناس لعددنا من ذلك ما يبهت القاريء ويخرج عما قصدنا إليه من عجائب الهند[1]».

* * *

نظرية عجيبة لبزرك في أصول الحيوانات.

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 39–40.

سمك الظلوم:

«ويقال: إن سمكاً يقال له (الظلوم) على صورة الآدمي، وله فرج كفرج الناس الذكر والأنثى، يصاد، وله جلد أثخن من جلد الفيل، يُدْبغ ويستعمل للأخفاف[1]».

* * *

هنا نرى بزرك يقبل ما لا يقبله العقل.

سمك يطير كالطير:

«ويقال: إن كل طائر في الهواء وعلى وجه الأرض، في البحر من السّمك مثله، أو ما يشبهه، ولقد رأيت في جون أيلة، من البلاد الشامية سمكا صغيرا لونه يشبه لون الشقراق، لا يغادر [لا ينفك] يطير من الماء ويغوص فيه[2]».

بحر من نار:

«ومن عجيب أمر بحر فارس مايراه النَّاس فيه بالليل، فإن الأمواج إذا اضطربت وتَكَسَّرت بعضها على بعض انقدح منه النار، فيخيّل إلى راكب البحر أنه يسير في بحر نار[3]».

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 40

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 40–41.

(3) بزرك، عجائب الهند، ص 41.

* * *

هذه الظاهرة توجد أيضاً في بحار غير بحر فارس أو الخليج العربي، ولا تنشأ – كما قال بزرك – من اصطدام الأمواج بعضها ببعض، وإنما من مادة فسفورية تعرف عند بعض البحارة بـ(الشبص) فترى البحر مضيئاً في الليالي المظلمة بهذه المادة.

التنين:

«وحُدثت أن في البحر حَيَّات يقال لها التنين، عظيمة هائلة، إذا مَرَّت السَّحاب في كبد الشتاء على وجه الماء خرج هذا التَّنين من الماء ودخل فيه لِمَا يجد في البحر من حرارة الماء لأن ماء البحر في الشتاء يَسْخن كالمرجل، فيسجن هذا التنين ببرودة السحاب فيها، وتهب الرياح على وَجْه الماء، فترفع السّحاب عن الماء، ويستقل التنين في السحاب، وتتراكم وتسير من أفق إلى أفق، فإذا استفرغت مما فيها من الماء خفت وصارت كالهباء، وتفرقت وقطعتها الرياح فلا يجد التنين ما يَتَحامل عليه فَيَسقط إما في بحر وإما في بَرّ، فإذا أراد الله تعالى بقوم شَرّاً أسقطه في أرضها، فَيبْتلع جِمَالهم وخَيْلهم وأبقارهم ومواشيهم ويهلكهم، ويبقى حتى لا يجد شيئاً يأكله فيموت أو يهلكه الله سبحانه. ولقد حدثني أهل البحر والسفارة تجار وربانية: أنهم أبصروه غير دفعة في السحاب، يعبر على رؤوسهم أسود ممدود في السحاب، كلما تراخى هَبَط إلى أسفلها ورسب، وربما تَدلَّى طرف ذنبه في الهواء، فإذا

أحس ببرد الهواء زَخَّ نفسه وتحامل في السحاب وغاب عن الأبصار فتبارك الله أحسن الخالقين[1]».

* * *

المعلومات الأسطورية عن التنين في هذه الحكاية ربما أخذها بزرك عن البحارة الذين عرفوا بعض البوذيين من البحارة والتجار، وغيرهم. فالتنين هو المسؤول عن هطول الأمطار، ويركب السحاب، ويسكن قاع البحار. ويسقّط الأمطار على الأراضي حيث أمره الإله الأكبر عندهم.

بركة:

«وحدثني جماعة من البحريين بأمر سعيد الفقير العدني، وكيف كان سبب غنى أولاده، وأجمعوا كلهم على ما أصفه. ذكروا: أن سعيد الفقير كان رجلاً صالحاً من أهل عدن يسفّ - أي يضفر - القِفَاف والخوص، ويلزم مسجدا يصلِّي فيه سائر الصَّلوات، وكان له ثلاث بنين يعيشون في معاش قريباً من معاشه، وأن بعض البحريين جَهَّز مركباً إلى (كَلَه)، وكان صديقا لسعيد، فلما عزم على المسير، وقال له: أسألك أن تسألني حاجة. فاشْتَرَى بنصف درهم جَرَّة خضراء، وبدانق ملحاً جريشاً، وجعله فيها وَطَبَّها، ودفعها إليه، وقال له: هذه بضاعتي. قال له: فما أشترى لك، قال: اشتر لي بركة، كما تقول الناس. وخطف

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 41—42.

المركب ووصل إلى (كله) ونجل المركب، وباع ما فيه، ونسي صاحب المركب الجرة، فبينما هو ذات يوم في سوق (كله)، وقد قارب الخروج منها وَحَمَّل المركب، إذ رأى رجلاً يجر سمكة في حَبْل وينادي: من يشتري بركة. فلما سمع ذلك، ذَكَر جَرَّة سعيد الفقير، فدعا صاحب السّمكة وسأله عنها. فقال: هذا جنس من السّمك يُسَمِّيه الصَّيادون بركة. فقال: في نَفْسه لعل الرجل أراد هذه السَّمكةِ بعَيْنها، فاشتراها على أن يُعْطيه بالثَّمن وزن أوقيتين ملح وأجلسه، وأرسل بعض أصحابه إلى المركب، فجاء بالجرة كهيئتها وأعطى الرجل من الملح ما وافقه عليه، وأمر بحَمْل السمكة إلى المنزل الذي يسكنه، ووضعت السمكة لتملّح ببقية الملح، وهم يخرجون ما في جوفها إذ وجدوا عدة صَدَف، فشَقّوها فوجدوا فيها صَدَفة فيها درّة. فقال الرجل: هذا رزق ساقه الله إلى سعيد. وَمَلّح السمكة ببقية الملح ورفع الدرة، وساروا من (كله) ووصلوا إلى (عدن)، ورفع الرجل الدُّرَّة إلى سعيد، فعاش بعد حصولها في يده مدة يسيرة ثم مات، فأخذها ابنه الأصغر، وخرج إلى (سرّ من رأى) إلى الخليفة، وهو يومئذ المعتمد[1]، فباعها عليه بمائة ألف درهمَ وكان قيمتها أضعاف ذلك[2]».

* * *

هذه الحكاية ليس فيها ما ينكره العقل، والمعلومة الهامة فيها هي سفر المراكب العربية من عدن إلى (كله) في القرن الثالث الهجري.

---

(1) قد يكون المعتمد على الله الخليفة العباسي الخامس عشر، (892–992م) المنجد.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 96–97.

و(كله) هي - كما ذكرنا من قبل - على الساحل الغربي من شبه جزيرة (ملقة)، ماليزيا حالياً، وإلى الشمال، على الأرجح، من (ملقة) التي حلّت محلها فيما بعد.

وكانت المراكب التجارية تسافر من عدن إلى ملقة، في أيام ابن ماجد وسليمان المهري في أواخر موسم الرياح الجنوبية الغربية، ويحدد المهري سفرها من عدن في مائتين وسبعين من سنة النيروز، حيث قال: «موسم [السفر] العدني لملقة، وشمطرة، وتناصري، ومرطبان، وبنجالة، وجميع بنادر تحت الريح مائتان وسبعون النيروز[1] «وسنة النيروز كانت تبدأ عندهم في الثالث عشر من شهر تشرين ثاني (نوفمبر)[2]»، وتحسب سنة النيروز بالأيام فيصير يوم مائتين وسبعين منها، هو اليوم الثاني عشر من شهر أغسطس/آب، إذا كان شهر فبراير بثمانية وعشرين يوماً. ومن عدن تسير بحذاء الساحل الجنوبي من جزيرة العرب إلى رأس (فرتك)، ومنه تنطلق في عرض البحر إلى الجزء الجنوبي من ساحل الهند الغربي، ومن هناك إلى جزيرة (سيلان) [سريلانكا حالياً] ثم إلى جزر (ناكباري)

---

(1) سليمان بن أحمد المهري، العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، تحقيق إبراهيم خوري (مجمع اللغة العربية - دمشق 1970) ص 116.

(2) في أرجوزة «حاوية الاختصار في علم البحار» في الفصل الثالث، قال شهاب الدين أحمد بن ماجد:

أما ذوي الأزياج والحساب	عندهم النيروز بالصواب
بعد أحد يا صاح والعشرينا	ثاني شهور الروم من تشرينا
وينزل الإكليل تاسع عشر	من ذلك الفجر يرى بالجهر
وعندنا ينزل ثالث عشر	إكليلها الفجر بهذا الشهر

قوله: وعندنا: أي عند البحارة، والإكليل: يقصد به منزلة الإكليل.

في بحر (هرقند) ومن هناك إلى مضيق (ملقة) وميناء (كله). و(شمطرة) هي (سمطرة) و(تناصري) و(مرطبان) على ساحل سيام (تايلاند) و(بورما) حالياً، أما (بنجاله) فهي (بنجلاديش)، و(تحت الريح) يقصد به ما كان شرقي الهند من البلدان.

حوت لجّة سمرقند:

«وحدثني بعض الربانية أنه رأى في لجة (سمرقند) – وهو البحر الذي يلي (هركند)، ويقال إن مصب ماء نهر سمرقند في هذا البحر، وأنه سمي سمرقند لذلك – خلقاً كثيراً من الفال[1] وهو أكبر سمك في البحر، وأنه رأى سمكة قدّر أن طولها نحو مائتي ذراع وارتفاعها مائة ذراع، وأنهم رأوها من بعد وقد رفعت، فظنوها شرع مراكب إلى أن حاذوها، وأن على ظهر هذا السمك مثل الحجارة لما قد تراكب عليه طول السنين من الجشور والطين فاستحجر، وصار لا يعمل فيه الحديد، ولا غيره. وأنه يسير في البحر يمنة ويسرة، ووراءه، وبين يديه فراسخ سمك لا يفارقونه. والذكر والأنثى منه، على ما قيل يحمل فيعظم في بطونها، إلا أن الذي يحمله الذكر لا يكون منه شيء، والذي تحمله الأنثى يكون منه الأولاد[2]».

* * *

(1) الفال: جزائر قريبة من ساحل الهند الغربي، شمال جزائر (مالديف)، كما يطلق اسم (الفال) على جزائر (أندماند) في خليج البنجال.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 101.

الذكر من الحيتان لا يبيض ولا يلد، وغير هذا مما جاء في هذه الحكاية يبدو معقولاً.

القردة:

«وحدثني بعض البحريين: أن مركباً كان يمضي إلى صنف من عُمان فأصيب، وسَلم من أهله نحو عشرة في قارب، فحَمَلْتهم الرياح إلى جزيرة مجهولة لا يعرفونها، فرموا بنفوسهم على ساحلها وليس لهم حركة لشدِّةِ ما لحقهم في البحر من الأهوال والشدائد، فمكثوا هنالك بقية يومهم، ثم قاموا فاحتالوا في القارب إلى أن جَرّوه إلى السَّاحل، وباتوا ليلتهم معه. فلما أصبحوا مشوا في الجزيرة، فوجدوا فيها ماء عَذْباً كثيراً، وغوطة حسنة وأشجاراً متكاثفة، فيها ثمار شَتَّى وموز كثير وقصب سكر، ولم يروا فيها إنسيّاً، فأكلوا مما اشتهوا من الثِّمار وشربوا من ذلك الماء، وانصرفوا إلى قاربهم فجَرُّوه إلى البر وَسَنَدوه بالخشب، وجمعوا من ورق الموز والشجر فظللوه وأحكموا أمره، وأصلحوا لأنفسهم إلى جانبه موضعاً يَسْترهم. فلما مضت عليهم خمسة أيام أو ستة، فإذا هم بقطعة قرود قد أقبلوا يقدمهم قرد كبير جسيم، فوقفوا على القارب، وَفَزِع القوم منهم، فصعدوا إلى القارب، فلم يعرضوا لهم، وأقاموا رئيسهم بمكانه، فجعل يفرقهم يمينا وشمالا كما يُنْفِذ العامل رجاله، ثم عادوا إليه، وَجَعَل بعضهم يومئ إلى بعض كأنهم يتحَدّثون بشيء، فلما أمسوا انصرفوا، فورد على القوم من هذا أمر

عظيم، وخافوا على نفوسهم أن تقتلهم القردة، وجعلوا يفكرون في الخلاص ليلهم، وهم بسوء حال لا زاد معهم، ولا يعرفون الطريق ولا يَهْتدون لحيلة. فلما أصبحوا جاءتهم قردة فطافت بهم ثم مَضَتْ، ثم عادت ومعها قردة أخرى، فأومت إليها بشيء.

قال هذا الرجل: فحدثت عن واحد من القوم أنه قال: فتبعت القرود إلى أن دخلوا الغوطة، ثم خِفْت على نفسي، فرجعت بعد مُدّة مضت من النهار إلى أصحابي، فسألوني فأخبرتهم، فلما كان من غدٍ عاودت القرود على تلك الصورة الأولى، وجلس رئيسهم على القارب، ونَفَّذهم في حوائجه على الرَّسم، فلما مضت ساعة من النهار، جاء قِرْدان مع كل واحد منهما قطع ذَهَب في نهاية الجودة، فطرحوها بين يديه، ثم عادوا بأجمعهم فأومأ بعضهم إلى بعض فانصرفوا، ونزلنا إلى الأرض فأخذنا الذهب، فإذا هو مثل العروق الغلاظ في نهاية الجودة، فورد علينا من السُّرور بذلك ما نسينا معه بعض ما نحن فيه، فلما أصبح جاءت قردة طافت بنا ثم مضت، فمضيت خلفها إلى أن أمعنت في الغوطة، وخرجت من الغوطة إلى صَحْراء أرضها رملة سوداء، فحفرت القردة بين يدي ووقفت، فجلست فحفرت في الموضع فَوَجَدت عروق الذّهب مشتبكة، فلم أزل أقلع إلى أن أدميت أصابعي، وجمعت ما قلعته وحملته، ورجعت فضللت عن الطريق لاشتباك الشجر، فتعلقت ببعض ذلك الشجر وبت فيه ليلتي، فلما أصبحت إذا بالقردة قد وافت على الرَّسم، فتركتها حتى مضت، ثم تبعتها إلى أن رأيت البحر وتعلقت بشجرة من الشجر، فأقمت عليها إلى الليل، فلما انصرفت القرود

نَزَلْت، فوافيت أصحابي فتلقوني وهم يبكون. وقالوا: إنا لم نشك انك قد تلفت، فحدثتهم بالصُورة، وطرحت الذهب بين أيديهم فتجدد لنا هم وغم، لأنَّا لَّما استغنينا لم نجد سبيلاً إلى حَمْل ذلك ولا طريقاً، ولا معنا ما نَحْمله فيه، لأنا متى ما حملناه في القارب لَمْ نأمن الغرق لصغره، وإذا حملناه لم نَهْتدِ الطريق. ثم أجمع رأينا على أن نَمْضي إلى تلك الصحراء وَنْقلع الذهب ونحمله إلى نَحْو قاربنا وَنتَوَكَّل على الله عَزَّ وجل، فكنا نمضي في كل غدوة من الغدوات، التي لم يَجْر للقرود أن يجيئونا فيها، فنقلع الذَّهب ونحمله، وحفرنا عند القارب ودفنا الذَّهب، ولم نزل نَقْلع الذهب وننقله مدة سنة إلى أن حصل لنا شيء عظيم لا يعرف مقداره، والقرود مع ذلك تجيء يوماً ويوماً لا تجيء، ونأكل من ثمار تلك الجزيرة ونشرب من ذلك الماء.

فبينما نحن على حالنا تلك إذ مَرَّ بنا مركب ماض إلى عُمَان أو إلى (سيراف) قد أسقطه الريح وركبه البحر فرمى كل ما في جوفه ومات أكثر رجاله غرقا وشرقا من شدة ما ركبهم البحر، فلما رأوا الجزيرة أرادوا الانحياز إليها فلم يقدروا، فبقوا متماسكين، فلما أحدُّوا النَّظر إلى البر رأونا ورأوا الدونيج فوق البر، فتطارح لنا رجلان من رجاله بحبل ولم يزالوا يعاندوا، فلما رأيناهم أخذنا حِبَالنا وتطارَحْنا إليهم في البحر، فتلَقَّيناهم وربطنا حِبَالنا مع حبالهم، فلما صارت الحِبَال في البَرّ استوثق بها حَتَّى مضى إلى المركب مِنَّا اثنان فأشرفوا على المَرْكب، فإذا بالبانانية والربان وبعض التُّجار قد أشرفوا على الموت من شِدَّة الهول، وقد كَلُّوا مِمَّا يمتحونه من الماء، وهم حينئذ في وَسَط اللّجة. فقالوا

لأصحابنا: اجذبونا إلى البَر وخذوا ما بَقِيَ معنا من البضائع والمتاجر. وقال الربان: يا إخواننا اجذبونا إلى البر، وخذوا المركب لكم ملكاً. فقال أصحابنا: ما نفعل شيئاً من ذلك بل نجذبكم إلى البر، ولنا نصف هذا المركب ملكاً. قالوا: حبا وكرامة، وتعاقدوا على ذلك، وشهد بعضهم على بعض، ثم قال لهم أصحابنا: ولنا عليكم شرط. قالوا: وما هو. قالوا: نشحن نصف هذا المركب لنا بمُلْكنا لا يشاركنا فيه أحد ولا يعترضنا فيه أحد. قالوا: لكم ذلك. قال أصحابنا: ونوسقه والوسق المتعارف عليه لا بحيف فيغرق، قال أصحاب المركب: هذا شيء قد جَرَّبناه وما تَخَلَّصنا منه إلى الآن فنناشدكم الله إلا ما خَلَّصتم حشاشنا من هذا الهول الذي نحن فيه، فتطارح أصحابنا إلى البر، وجاءت القرود، فلما رأونا نجذب حَبْل المركب جذبوا معنا فجاءت المركب في أسرع وقت، فتطارحت رجال المركب إلى البر شَوْقاً إليها لما جرى عليهم. فلما أصبحنا عرفناهم موضع الثمار فأكلوا وشربوا، ورجعت لهم نفوسهم، فجاءت القرود من الغد بالذَّهب على الرسم، فآثرناهم به على نفوسنا لأنا اكتفينا منه، وقَدَّمنا المركب فأوسقنا وشحنَّا نصف المركب ذهباً، وأوسق الربان النُّصف الثاني له ولتجاره ذَهباً، وتزَوَّدنا مما في الجزيرة، وواتت الرياح وأسرينا، فدخلنا بلد الهند، ونقل كل واحد مِنَّا نايبه إلى موضعه، فكان الذي وقع لكل رجل مِنَّا ألف ألف مثقال ومائة ألف وأربعة وأربعون ألف مثقال، فلم نعد نركب بحراً إلى هلم[1]، وهذا من أغرب ما سَمِعْناه من نوادر القرود[2]».

(1) «إلى هلمّ»: إلى الآن.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 70–77.

قد تكون هذه الحكاية صحيحة، فحوادث غرق المراكب الشراعية، أو سلامتها من العواصف، ولجوءها إلى الجزر كثيرة، وقد تكون هذه الجزيرة من الجزر التي توجد بها عروق الذهب على السطح. أما القردة فمعروف عنها شدة الفضول والولع بتفحص كل شيء غريب عليها.

* * *

«وحدثني من رأى قرداً بقرية من قرى ....[1] في منزل بعض التجار يَخْدمه يكنس منزله، ويَفْتح الباب لمن دخل ويغلقه خلفه، ويَقد النار تحت القِدْر، وينفخ فيه حتى يقد، ويطاعمه الحطب، وينُشّ الذبان على المائدة، ويروِّح على مولاه بالمَرْوحة[2]».

«وحدثت: أنه كان بـ(ظفار) من مدائن اليمن حَدَّاد عنده قرد ينفخ على الكور طول نهاره، أقام عنده كذلك نحو خمس سنين، وترددت إلى البلد سفرات وأنا أبصره عنده[3]».

«وحدثت: أن قرداً كان في منزل رجل ببعض بلاد اليمن، وأن الرجل اشترى لحماً وجاء به إلى منزله، فأومأ إلى القرد أن احفظ اللحم، فجاءت حدأة فنشلت اللحم، فبقي القرد متحيِّراً، وكان في الدار شجرة فصعد إلى رأسها، ورفع إسته إلى السماء، ودَلَّى رأسه إلى أسفل، وجعل يديه إلى جانبي إسته، فظنت الحدأة أن إسته من جملة اللحم الذي اختطفته، فانقض الطائر عليه فضربه فتَلَقَّاه القرد بيديه فقبضه وأنزله إلى

(1) موضع النقط ساقط من الأصل.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 77.

(3) نفس المصدر، ص 77–78.

الدار، فوضعه تحت الجِفْنَةِ وغَطَّاه بشيء ثقيل، فجاء صاحب المنزل فلم يجد اللحم فقام إلى القرد ليضربه فقام القرد إلى الجفنة وأخرج الحدأة، فعلم الرجل وفطن لما جرى، وأخذ الحدأة فنتف ريشها وصلبها على الشجرة[1]».

* * *

ما لا يقبله العقل في هذه الحكاية أن يدبّر القرد حيلة للقبض على الحدأة. وتليها حكاية أخذها بزرك عن رجل من (أصبهان)، عن قرد يمنع شاباً من الدخول إلى غرفة ربة البيت إلاّ مقابل قطعة من الحلوى يقدمها له. ويقول بزرك إن مغزى الحكاية هو «أن مصانعة الخدم تقضي الحوائج[2]».

الطير:

«ومن عجيب أمر البحر أن طائراً بناحية (مايط)، وهي جزيرة في البحر بالقرب من (الصنف) و(سريرة)، قيل إنه يجمع عشاً على الماء في خور من الأخورة وتبيض عليه [أنثاه]، وتحضن البيض أربعين يوماً، فإذا كان بعد أربعين يوماً، رمى البيض في البحر وجلس على الساحل بإزائه لا يبرح عشرين يوماً يأكل السمك، فإذا مضى عشرون يوماً خرج إليه من فراخه من ذلك البيض، فيجتمعون حول أبويهم،

---

(1) نفس المصدر، ص 78.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 84.

فيلفونهم في ريشهم ثم يزقّونهم إلى أن ينبت لهم ريش، فإذا تحاملوا وأكلوا تركاهم، وأكثر ما يكون فراخهما ثلاثة، وأهل (مايط) (....)[1] هذه الجزيرة – على ما ذكروا – ولا يدخلها مركب سالم لأن المراكب تمضي إليها في وقت واحد من السنة، فيتفق مجيء المراكب إليها في وقت خب عظيم. فإذا حصل المركب بإزاء البلد طرح أهله نفوسهم إلى البحر على الخشب وما يحملهم، ولا يزال الموج يضربهم حتى يلقيهم على الساحل، وتحمل الموج المركب، ولو كان فيه مائة أنجر حتى تلقيه على الساحل فتكسره وتقذف بالأمتعة إلى الساحل، فيأخذ الناس أموالهم، ويستأنفون مركباً للرجوع، فجميع ما يحمل إلى ذلك البلد يجعل في الجلود، ويحكم صونه لئلا يتلف بالماء، وقت انكسار المركب. وهي جزيرة فيها ذهب، وقطن وعسل[2]».

* * *

قد تكون جزيرة (مايط) هي جزيرة (بورنيو) في الوقت الحاضر، فهي قريبة من (فيتنام الجنوبي)، أو (الصنف) قديماً.

* * *

«وحدثني من أقام بالهند زماناً، أن فيهم كهنة وأن فيهم من يخرج إلى الصحراء فيرى الطيور تطير في الهواء، فيخط في الأرض دائرة تحت الطيور، فلاتزال تدور في الجو فوق الخط إلى أن تقع فيه، ثم لا تخرج عنه البتة، فيدخل إلى جوف الخط ويأخذ منها ما يريد، ويطلق

(1) ساقط من الأصل، بموضع النقط.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 102–103.

عن بقيتهم. وكذلك أيضاً يرى في الصحراء طيوراً ترعى فيخط حولها خطاً بعيداً يدور عليها فما تبرح منه البتة، فيدخل إليها ويأخذ منها حاجته[1]».

* * *

هذه من أساطير الهند التي كانت شائعة بين البحارة العرب وكذلك زجر الطير كما في الحكاية التالية.

«وحدثني من رأى ببلاد الهند خلقاً كثيراً يزجرون، وأن بعض التجار من أهل (سيراف) حدثه أنه أراد الخروج من (صامور) إلى (سوبرة) بطريق البر، فقال لصاحب السلطان يضم إليه رجلاً يخفره في طريقه، فضم إليه أحد من كان بين يديه من الباتك وهم الرّجالة.

قال: فخرجنا، فلما صار بظاهر (صيمور) جلسنا عند ثلاج، وهو بركة ماء. و(جرام) وهو البستان، نأكل شيئاً وفي جملته أرز، فنعق غراب، فقال الهندي للسيرافي: أتعرف ما يقول الغراب؟ قال: لا. قال: يقول: لابد أن آكل من هذا الأرز الذي أكلتموه. قال: فعجبت من قوله، لأننا كنا قد أكلناه جميعه، حتى لم يبق منه شيء. ثم نهضنا وأخذنا نمشي، فما سرنا فرسخين حتى لقينا خمسة أنفس أو ستة من الهند. فلما رآهم الهندي اضطرب، وقال لي: أن أقاتل هؤلاء. قلت ولِمَ؟ قال: لأن بيني وبينهم عداوة، فلما كلمني بما أراد جرّدوا خناجرهم واجتمعوا عليه فقتلوه وشقوا بطنه حتى خرج ما فيها، ووقع عليّ من الفزع ما لا

(1) نفس المصدر، ص 104.

يمكنني معه المشي، فسقطت كالباهت فقالوا لي: لا تفزع، فإن هذا بيننا وبينه عداوة وأنت لا بأس عليه، ومضوا وتركوني، فما تباعدوا حتى سقط غراب، لا أشك في أنه ذلك الغراب فجعل يلتقط الأرز الذي خرج من جوفه[1]».

الحيّات:

«وخبرني شيخ من شيوخ البحر: أن قرية من قرى (الصنف)، انتقل أهلها من أجل حَيَّة كانت بالقرب منهم أكلت مواشيهم وجَمْعاءً من أهلها، وأن الحِيَل أعيتهم فيها فانتقل أهلها عنها وخربت القرية ولم يعد إليها أحد[2]».

* * *

لم يذكر سبب عجز أهل القرية عن قتل الحية.

«وحدثني بعض المنصوريين ممن سلك إلى (ماركين) وهي مدينة بينها وبين ساحل بلاد (الأومئون)[3] فرسخاً، وبها (لهلو) ملك الهند،

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 106—107.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 47.

(3) وردت العبارة في نشرة الأستاذ عبدالله الحبشي ص 58: وهي مدينة بينها وبين ساحل بلاد (ألاو) مئون فرسخاً، ونقل عن تعليقات ديرليت أنها مصحفة عن (لار)... إلخ (المصحح).

أن ببعض جبالها حَيّات صغاراً رقطاً وغبراً، إذا نظرت الحية إلى إنسان قبل أن ينظر إليها ماتت، وإذا نظرها الإنسان قبل أن تنظره مات، وإذا نظر بعضهما إلى بعض ماتا، وهي أخبث الحَيَّات[1]».

* * *

لا نجد تعليقاً لبزرك على هذه الخرافة التي لا يقبلها العقل.

حيّات (كولم):

«وحدثني بعض البحريين عن أمر الحيات بـ(كولم ملي) ما يدهش، وذكر أن منها حية تسمى (الناغران)، منقطة على مثل الصليب أخضر، ترفع رأسها عن الأرض مقدار ذراع، وذراعين، على قدر كبرها، ثم تنفخ رأسها وأصداغها وتصير مثل رأس الكلب. وإذا سعت لم تلحق، وإذا طَلَبت لحقت ما أرادت، وإذا نهشت قتلت. وأن بـ(كولم ملي) رجلاً مسلماً يسمى بالهندي (بنجي)، وهو صاحب الصلوات، يرقي نهشة هذه الحية، فربما قد تمكن سمّها فيه، فلم ينفع، وفي الأكثر يعيش من يرقيه، ويرقي أيضاً من نهشته غيرها من الأفاعي والحيات. وبهذه الناحية جماعة من الهنود يرقون، إلا أن رقية هذا المسلم لا تكاد تخطئ. قال لي هذا الرجل، وشاهدته وقد جاءوه برجل قد نشهته هذه الحية، وحضر رجل من الهنود موصوف بالحذق بالرقية ليبرأ، وجعل المسلم يرقيه ليموت فمات، وأنه شاهده أيضاً وقد رقا غير واحد ممن قد نشهته

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 50.

هذه الحية، وغيرها، فبرئ وسلم. وأن ببلاد (كولم ملي)، خاصة حية صغيرة ولها رأسان، أحدهما الأصغر، صغير، يقال لها (بطر)، وأنها إذا فتحت فمها الأصغر كان كمنقار العصفور، إذا نهشت لم يمهل طرفة عين[1]».

* * *

(كولم ملي: ميناء بالطرف الجنوبي من ساحل الهند الغربي، على طريق المراكب المسافرة من جزيرة العرب إلى الشرق الأقصى.

«الرقية»: التميمة، يرقى بها الإنسان من فزع أو جنون ومن لدغ الحيات والمرضي.

الحية التي تنفخ رأسها وأصداغها، وترفعه عن الأرض مقدار ذراع أو أكثر هي الكوبرا المعروفة، أما الأخرى فغير معروفة إلاّ في الأساطير.

تقاليد وطقوس هندية:

«قيل إن في بلاد الهند الأعلى الرسم في إحراق الشيوخ والعجائز باق[2]».

«حدثني من دخل الهند أنه رأى بـ(كنبايت) الواحد بعد الواحد يجيء إلى الخور ليغرق نفسه فيعطي أجره لمن يغرّقه. يتخوف أن يدركه

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 120–121.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 123.

الخوف أو الجزع في تغريق نفسه، فيعطي الأجرة لمن يضع يده في قفاه ويغطّه في الماء، حتى يتلف، وإن صاح، أو استعفى، أو سأله أن يطلقه لم يفعل[1]».

* * *

«كنبايت» أو كنبايه: من إقليم (جوزرات) بالشمال الغربي من الهند.

وَحَدَّثني من أثق بقوله: أنه شاهد ببعض بلاد الهند رجلين (.....)[2]. منهم قد بقينا، وحفر كلّ واحد منهما بئراً وملأها بعد أن قام فيها على رجله سرجينا، وجعل فيه ناراً ووسَّطا بينهما نَرْداً، وجَعَلا يَلْعبان بها ويمضغان التَّانبول، ويغنيان والنَّار تعمل فيهما من أسفل إلى أن بلغت النار إلى قلوبهما فطفيا ولم يظهر منهما تألم ولا تغير. وقال: إنه لا يعلم هل حدّثه هذا الرجل أنهما ماتا في اليوم الأول أو جلسا يلعبان إلى اليوم الثاني وماتا فيه[3]».

* * *

«وحدّثني: أن الجليل من تجار الهند والجند وغيرهم، أو الجليلة من النساء، وإن كانت حظيّة الملك، يجتاز بروث البقر والجواميس، فإن كان معه من يَحْمله وإلاَّ جعل علامة ليُعْلم أن ذلك قد صار في حيز آخر، فإذا وجد من يحمله أخذه. والهنود يأكلون الميتة وذلك أنهم

(1) نفس المصدر، ص 153–154.

(2) ساقط من الأصل.

(3) بزرك، عجائب الهند، ص 147–148.

يأخذون الشاة أو الطير فيضربون رأسه حتى يموت فإذا مات أكلوه، وقيل لبعض كبارهم (بصيمور) و(سوبارة) اجتاز بفأرة ميتة فأخذها بيده ودفعها إلى ابنه أو غلامه، وحملها إلى منزله وأكلها والفأر عندهم من أنظف ما يؤكل[1]».

* * *

نلاحظ أن الماشية التي لم تذبح بالطريقة الإسلامية، كانت تعتبر ميتة. وأكلة اللحوم، من الهنود، هم السيخ، وهم يختلفون عن الهندوس في ديانتهم. أما أكل الفئران الميتة مع وفرة اللحوم الطازجة في بلاد كالهند، فقول غير معقول.

* * *

«ذكرت في فصل قبل هذا أمر عبّاد الهند وزهادهم، وهم عدّة أصناف، منهم (البيكور) وأصلهم من (سَرَنديب)، وهم يحبّون المسلمين ويميلون إليهم ميلا شديداً، وهم في الصَّيف عُراة حفاة لا يَسْتترون بشيء، وربّما جعل الواحد منهم على سوءته خرقة أربع أصابع في مثل ذلك، مشدودة بخيط في الوسط، وفي الشتاء يتّشحون بالحُصُر الحشيشة، ومنهم من يلبسون الأزار مرقّعاً من كلّ لون على لون المرقعة للشّهرة، ويلوّثون أبدانهم برماد عظام الموتى من الهند الذين أحرقوا، ويحلقون رؤوسهم وينتفون لحاهم وشواربهم، ولا يحلقون شعر العانة ولا شعر الإبطين، وفي الأكثر [لا] يقصّون أظفارهم، ومع الواحد منهم

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 162.

قحف رأس إنسان مَيّت، فيه يأكل ويشرب على سبيل الاتعاظ بذلك والتَّواضع.

وكان أهل (سرنديب) وما والاها لمّا بلغهم خروج النبيّ ﷺ، أرسلوا رجلاً فهيماً منهم، وأمروه أن يسير إليه فيعرف أمره، وما يدعو إليه فعاقت الرجل عوائق، ووصل إلى المدينة بعد أن قبض رسول الله ﷺ وتوفى أبو بكر ﷺ وَوَجَدَ القائم بالأمر عمر بن الخطاب ﷺ فسأله عن أمر النبي ﷺ فشرح له وبيّن، ورجع فتوفي الرجل بنواحي بلاد مكران، وكان مع الرجل غلام له هِنْدي، فوصل الغلام إلى (سَرَنْديب) وشرح لهم الأمر وما وقفا عليه من أمر النبي ﷺ وأبي بكر ﷺ وأنّهم وجدوا صاحب النبيّ ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ ووصف لهم تواضعه، وأنه كان يلبس [ثياباً] مرقعة ويبيت في المساجد، فتواضعهم لأجل ما حكى لهم ذلك الغلام، ولبسهم الثِّياب المرقعة لما ذكره من لبس عمر ﷺ المرقعة، ومحبتهم للمسلمين وَمَيْلهم إليهم لما في قلوبهم مما حكاه ذلك الغلام عن عمر ﷺ. وفي مذهب أهل الهند أن الشَّراب على الرجال حرام وهو للنساء حلال ومن الهند من يشربه سراً[1].

* * *

رحلة مندوب أهل (سرنديب) إلى المدينة، تمت – كما يبدو – عن طريق البر، بدليل أنه توفي بعد رجوعه من المدينة في (مكران) بجنوب إيران. وليس في الحكاية شيء ينكره العقل.

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 155–157.

إسحاق اليهودي:

«ومن طريف أخبار تجار البحر، ومن ركبه، واستغنى فيه ما حدث عن إسحاق بن اليهودي. وكان رجلاً يتصرف مع الدلالين بعُمان، فوقع بينه وبين رجل من اليهود خصومة. فهرب من عُمان إلى بلاد الهند، ومعه نحو مائتي دينار، لم يكن يملك سواها، وغاب عن البلد نحو ثلاثين سنة، لا يعرف له خبر. فلما كان في سنة ثلاثمائة ورد عُمان. فحدثني غير واحد من إخواننا البحريين، أنه ورد عُمان من الصين في مركب لنفسه، وجميع ما فيه له. وأنه قاطع أحمد بن هلال صاحب عُمان عن المركب، لئلا يحصي ما فيه ويعشر عليه، على ألف ألف درهم ونيف، وأنه باع على أحمد بن مروان، دفعة واحدة مائة ألف مثقال من المسك الفائق، وقدّر ابن مروان أنه ليس معه غير هذا المقدار. فباع على أحمد بن مروان برداً بأربعين ألف دينار دفعة أخرى، وباع على رجل آخر بعشرين ألف دينار دفعة واحدة فاستقاله أحمد بن مروان، فنقصه في كل مثقال درهماً نقرة، فصارت الحطيطة مائة ألف درهم، وكانت معه طريفة من طرف التجار.

فطار اسمه في البلاد، وحسده الخلق، وطلب منه بعض أهل الشر شيئاً فلم يعطه، فخرج قاصداً إلى بغداد، وكان أبو الحسن علي بن محمد ابن الفرات وزيراً، فسعى باليهودي فلم يلتفت إليه فتسبب إلى بعض الأشرار من خواص المقتدر بالله، وتنصّح في اليهودي، وحكى أن رجلاً

خرج من عُمان، ولا شيء معه، وعاد ومعه مركب به مسك بألف ألف دينار، وثياب حرير صيني بمثلها، وجواهر وأحجار طريفة بمثلها، ومن غرائب نوادر الصين ما لايحصى. وهو شيخ لا ولد له، وأن أحمد بن هلال أخذ منه من الأمتعة ما قيمته خمس مائة ألف دينار، فرفع الخبر إلى المقتدر فاستعظمه، وأنفذ في الوقت خادماً يقال له (الفلفل)، أسود مع ثلاثين غلاماً إلى عُمان، وكتب إلى أحمد بن هلال يأمره بحمل هذا اليهودي مع الخادم، ورسول من جهته، فلما وصل الخادم إلى عُمان، فقرأ أحمد بن هلال الكتاب، فأمر بالاحتياط على اليهودي، وقطع مصانعته لنفسه، على أن يدافع عنه على مال جليل. ثم دس إلى التجار من عرَّفهم ما في حمل اليهودي، عليهم وعلى سائر الغرباء، والقاطنين ممن يتجر، من سوء العاقبة والجرأة عليهم، ودخول اليد وطمع الفقراء فيهم وأهل الشر، فغلقت الأسواق، وكتبت المحاضر، وشهد فيها الغرباء والقاطنون بأنه متى حمل هذا اليهودي انقطعت المراكب عن عُمان، وهرب التجار. وأنذر الناس بعضهم بعضاً، أن لا يطرق أحد ساحلاً من سواحل العراق، ولا يأمن ذو مال على ماله، وأنه بلد فيه وجوه التجار وذوو اليسار من أقطار الآفاق، وإنما سكنت نفوسهم إلى المقام بعد أمير المؤمنين، وعدل أميره وحسن سيرته، ورعايته للتجار، وكف الطامع عنهم والباغي. فشغبوا على أحمد بن هلال، وصاحوا عليه واختصموه، حتى همّت نفس الخادم، يعني فلفل وأصحابه بالخروج، وتمنّوا الخلاص. وكتب أحمد بن هلال بذكر ما جرى، وأنه قد قامت نفوس التجار، وقدّموا مراكبهم. وأعادوا أمتعتهم التي جاءوا

بها، وأن التجار القاطنين في البلد توغّرت صدورهم، وقالوا إن بقينا انقطعت معايشنا وأرزاقنا بانقطاع المراكب عنا، وإنما هذا بلد، رزق أهله من البحر، وأنه متى تم هذا على أصغرنا جرى على الكبير أعظم. والسلاطين نار أين ما توجهت أحرقت، ولا طاقة لنا بذلك، والخروج من بين يديها أمثل.

وأخذ الخادم ومن معه من اليهودي نحو ألفي دينار وانصرفوا، فخبثت نفس اليهودي. ولم يزل يحتاج ويجمع ماله، وبنى مركباً وخرج إلى الصين ومعه جميع ماله حتى لم يخلف درهماً بعُمان. فلما صار بـ(سريرة) التمس منه صاحب (سريرة) عشرين ألف دينار مصانعة ليتركه يجوز إلى الصين، ولا يعوقه، فلم يعطه شيئاً، فدس عليه من قتله ليلاً، وأخذ مركبه وجميع أمواله.

وكان مقامه بعُمان ثلاث سنين. وخبرني من شاهده بعُمان في يوم مهرجان وقد أهدى إلى أحمد بن هلال برنية صيني سوداء[1] مضيئة الرأس بالذهب. فقال له: ما في هذه البرنية. فقال: سكباج أصلحتها بالصين لك. فتعجب من هذا. وقال: سكباج يطبخ بالصين، وقد مضى عليه سنتان كيف يبقى؟ فكشف الرأس وفتحت البرنية، فإذا فيها سمك من ذهب عيونه من الياقوت، وقد عبئ في البرنية وفي خلاله المسك الفائق. وإذا قيمة ما في البرنية خمسون ألف دينار[2]».

* * *

(1) البرنية: إناء واسع الفم من خزف أو زجاج ثخين.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 107–111.

هذه الحكاية حقيقية، فهي تتحدث عن قضية، كانت -لو تحققت- ستؤدي إلى انقطاع تجار البحر عن التعامل مع الموانئ العُمانية، في عصر الخليفة العباسي المقتدر بالله، وعامله على عُمان أحمد بن هلال. تلك هي قضية التاجر اسحاق اليهودي، وما جرى له في عُمان على يد حساده والطامعين في أمواله من المسؤولين في الدولة - كما تقول الحكاية - حيث سعوا به إلى خواص المقتدر، وانتهى ذلك بأن أمر الخليفة عامله على عُمان بحمل اليهودي إلى بغداد للتحقيق معه في أمر التجارة التي جاء بها من الصين.

فتجار البحر اعتبروا هذا الاستدعاء من الخليفة، بادرة خطيرة، قد تلحق الضرر بحركة التجارة البحرية في عمان والخليج عامة. واعتبروا اليهودي واحداً منهم، وما سيجري عليه سيجري عليهم أيضاً. فهددوا بقطع التعامل مع الموانئ العُمانية، مما أثار أيضاً تجار البر في صحار ومسقط، وغيرهما من المدن العُمانية. وهكذا فشلت مؤامرة الحاقدين على اليهودي.

وإذا هناك إفراط في تقدير قيمة التجارة التي عاد بها اليهودي من الصين إلى عُمان، فإن الرجل قد أقام في الصين زهاء ثلاثين سنة، اشتغل خلالها بالتجارة وجمع المال. وتجارة الصين، في الثمين من سلعها كالمسك، والحرير وغيرهما، تكون قيمتها عالية.

حديث إسحاق اليهودي:

«ومما حدث به اليهودي أنه قال: دخلت إلى بلد يقال له (لوبين) من بلدان الصين، والمسلك إليه بين جبال وعلى جبال شاهقة، ويحمل المتاع إليه على الغنم، لأن صعود جباله مثل صعود الدرج، لا تستطيعه إلا الغنم. فوجدت في هذا البلد ملكاً، له قدر وجلالة، عظيم الشأن فدخلت إليه وهو جالس على سرير من ذهب مرصع بالياقوت، وعليه حلي مثل حلي النساء، وزوجته إلى جانبه، عليها أكثر مما عليه، وفي رقبته أطواق من ذهب، وزبرجد لا يقوّمون بقيمة، ولا يكون مثلها عند ملك من ملوك المشرق ولا المغرب. وعلى رأسه نحو من خمسمائة جارية من كل لون، عليهم أنواع الحرير والحلي، فسلّمت عليه، فقال لي: يا عربي هل رأيت أحسن من هذا؟ يعني طوقاً من أطواقه. فقلت: نعم. قال: وكيف ذلك؟ قلت: معي واحدة اشتريتها بمال عظيم قصدتك أيها الملك بها. قال: فقالت له امرأته: بقي لك شيء هوذا، فقالا لي: عجّل لنا بها الساعة. فقلت: بسببها جئت، والليلة أجيكما بها، فقال: لا الساعة الساعة، وهو فرح مستبشر.

قال اليهودي: وكان عندي عشرة، فبادرت إلى الموضع الذي نزلته فأخذت تسعة فدققتها بحجر حتى صيرتها مثل السويق، ودفنتها في التراب، وأخذت الواحدة فلفيتها في المنديل، فظاهرت عليها المنديل، وجعلتها في تخت وشددتها وأحكمته، ثم حملته وقصدت الملك. ولم أزل أفتح وأنشر، وهو يزحف إليّ وزوجته قائمة، تستعجلني، حتى أخرجت المُنية، فسجد من ساعته لها، وسجدت امرأته. ووهبا لي عليها

مكافأة لها قدر عظيم[1]».

* * *

بمثل هذه الطريقة جمع إسحاق اليهودي – كما نرى – ثروته في الصين.

وادي الأدماس:

«وحدثني بعض من دخل بلاد الهند، أنه سمع أن الأدماس الجيد النادر يجلب من نواحي (قشمير)، وأن هناك وادياً بين جبلين فيه نار توقد طول الدهر، ليلاً ونهاراً وشتاء وصيفاً، والأدماس فيه. وليس يطلبه إلا طائفة من الهنود، سفلة، يحملون أنفسهم على المهالك. فتجتمع الجماعة منهم ويقصدون هذا الوادي، ويذبحون الغنم الهزيلة، ويقطعونها قطعا ويقذفون القطعة بعد القطعة في كلة منجنيق يعملونه، لأنه التقرب من الموضع لا يمكنهم لجهات شتى منها أن وهج النار يمنع من ذلك، ومنها أن حول النار من الأفاعي والحيات ما لا يوصف، وفيها ما لا يمهل حتى يتلف. فإذا قذفوا باللحم انحدرت عليه النسور، وهي كثيرة فتخطفه إن وقع بعيداً من النار، فترفعه، فإذا رأوا النسر قد أخذ اللحم اتبعوه حيث يمضي فربما سقط من قطعة اللحم التي أخذها شيء من الأدماس، وربما انحدر في موضع ليأكلها، فيجدون في ذلك الموضع الأدماس. وربما سقطت قطعة اللحم في النار فتحترق، وربما

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 112–113.

اختطفها النسر قبل سقوطها إلى الأرض. على حسب ما يتفق.

فهكذا يؤخذ الأدماس، وفي أكثر الأحيان يتلف طالبه بالأفاعي والحيات، والنار. وملوك الناحية يطلبون الأدماس، ويشددون في طلبه، وطلب من يلتمسه، ويفتشونهم أشد تفتيش لجلالة الأدماس وعظم خطره[1]».

* * *

يمكن اعتبار هذه الحكاية أصلاً لحكاية السندباد عن وادي الماس.

واق واق الصين:

«وحدّثني بعض البحريّين انّه كان ماضياً بين (سريرة) و(الصين) في سنبوق قال: فلمّا سِرْنا من (سريرة) مقدار خمسين زاماً، وقع علينا الخبّ، ورَمْينا بعض الحمولة إلى البحر، ومكثنا أيّاما في الخبّ، ثم وقعت علينا الرّيح، ولم يمسك المركب وأشرفنا على الهلاك، وأردنا أن نرمي نفوسنا في البحر ونتعلق بجزيرة، فرمينا الأناجر ونحن لا نصدق أنا نَتَخَّلص، وسكنت الأمواج ولم تَمْض عَنَّا ساعة حتى لاح لنا من الجزيرة جماعة، فانتظرنا أن يخرج إلينا قوم منهم، فلم يخرج إلينا أحد، فأومأنا إليهم، فلم يكلمونا، ولم نعرف الموضع، وحققنا أنَّا نحن متى نزلنا إليهم آذونا أو يكون وراءهم قوم فيقعوا بنا فلا نطيق لهم، فمكثنا في موضعنا أربعة أيام لا ينزل منّا أحد إلى الجزيرتين. ولا يعبر منهم أحد إلينا، فلمّا كان في

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 128–129.

اليوم الخامس اجتمع رأينا على النزول إليهم، لأنا احتجنا إلى الماء وإلى مسألتهم عن الموضع، ونحن لم نعرف الطريق.

فنزل منّا مقدار ثلاثين رجلاً بالسلاح في القارب والدونيج، فلمّا صعدنا إليهم تهاربوا كلهم ولم يبق منهم إلاّ رجل واحد، فكلّمنا فلم يعرف لغته إلاّ رجل واحد منّا، قال لنا: هذه جزيرة من جزائر الوقواق فسألناه عن الجزيرتين، فحكى أنّها من جزائر الوقواق، وأن ليس بقربها بلد إلاّ على مسيرة ثلاثمائة فرسخ، وهي جزيرة ليس فيها أحد سواهم، وعدتهم أربعون نفسا، وسألناه عن طريقنا إلى الصنف فعَرَّفنا ودلَّنا، وملأنا الماء وشرعنا نحو الصنف على ما قال، فأقمنا خمسة عشر زاماً وأشرفنا سالمين إلى (الصنف). والسلام وحسبنا الله ونعم الوكيل[1]».

* * *

سار السنبوق من (سريرة) خمسين زاماً عن ستة أيام وربع يوم، ومن الجزيرة إلى (الصنف) خمسة عشر زاماً عن يومين إلا ثلاث ساعات فصار مجموع ما قطعه السنبوق من الأزوام من (سريرة) إلى (الصنف) خمسة وستين زاماً عن ثمانية أيام وثلاث ساعات. والزام -كما عرفنا- بثلاث ساعات.

بين أكلة لحوم البشر:

«وسمعت من حكى: أن رجلاً من أهل البصرة كان ينزل في وسط سكة قريش خرج من البصرة قبل (الزابج) أو ما قاربه (......) فتخلص

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 190–191.

ووقع إلى جزيرة.

قال: فصعدتُ تلك الجزيرة وتعلّقت بشَجرة كبيرة فواريتُ شخصي بين أوراقها وبتُّ ليلتي، فلمّا أصبحت رأيت غَنَماً قد أقبلتْ نحو مائتى رأس في قدر العجاجيل، يسوقها رجل لم أر مثله، عَظيم الخلقة، طويل عريض بشع المَنْظر، ومعه عصاة يسوق بها الغنم، فقعد على ساحل البحر ساعة، والغنم ترعى بين ذلك الشجر، ثم طرح نفسه على وجهه فنام إلى حدود نِصْف النَّهار، ثم قام فرمى بنفسه في الماء واغتسل وخرج، وهو مع ذلك عريان ليس عليه إلاّ ورقة تشبه ورق الموز، إلاّ أنّها أعرض منه قد جعلها في وسطه كالميزر، ثم عمد إلى شاة فقبض رجلها وأخذ ضرعها في فيه، ومصّه إلى أن شرب ما فيه ثم فعل ذلك بعدة من الغنم، ثم استلقى في ظلّ شجرة، ففي تأمله الشجرة وقع طائر على الشجرة التي أنا فيها، فأخذ حجراً ثقيلاً وحذف الطائر فلم يكذب، فسقط الطائر بين أغصان الشجر بالقرب منّي، فأومى إليَّ بيده أن أنزلْ، فلخوفي منه بادرتُ وأنا ضعيف ميّت خوفاً وجوعاً، وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض، فقدرتُ أنَّ وزن الطائر نحو مائة رطل، ثم نتف ريشه وهو حيّ يضطرب، فلمّا نتفه أخذ حجراً قدر عشرين رطلاً، فضرب به رأسه وتركه حتى مات، ثم لم يزل يضربه بالحجر حتّى فسخه، ثم جعل ينهشه بأسنانه ويأكل كما تأكل السّباع حتّى أتى عليه، ولم يبق إلاّ عظامه، فلمّا اصفرّت الشمس، قام وأخذ العصا وساق الغنم بعد أن صاح صيحة أفزعتني، فاجتمعت الغنم إلى موضع واحد، وأوردهم خليجاً في الجزيرة فيه ماء عذب فَسَقَاهم وشرب وشربت، وقد أيقنتُ

بالموت، ثم ساقنا جميعاً حتّى جئنا موضعاً قد علّمه بين الأشجار وحوله الخشب طولاً وعرضاً، وله شبه باب ودخلت الغنم، ودخلتُ معها وإذا في وسط تلك الموضع مثل الغزّالة في ارتفاع نحو عشرين ذراعاً على خشب وثيق، والغزّالة تشبه البيت، فما عمل شيئاً دون أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم وأهزلها، فدقّ رأسها بحجر ثم أجّج ناراً وجعل يقطع بيديه وأسنانه كما تفعل السّباع ويرمي اللحم مع الجلد والصوف في النار، فأكل كلّ ما في جوف الشاة نيّا ثم عمد إلى الغنم، فلم يزل يشرب من هذه وهذه حتّى شرب من عدّة كبيرة، ثم أخذ شاة من أكبر الغنم، فقبض بيديه على وسطها فسخمها وهي تصيح، ثم أخذ أخرى ففعل بها مثل ذلك، ثم صعد فأخذ شيئاً كان يشربه ثم نام، فجعل يغط كما يغط الثور، فلما انتصف الليل جعلت أدبّ قليلا قليلا إلى موضع النّار، وتتبعت ما بقى من اللحم فأكلت ما يمسك رمقي، وخفت أن تنفر الغنم فيَنْتبه فيجعلني مثل الطائر أو كالشاة، وبقيت مطروحا إلى الغد، فلمّا أصبح نزل وساق الغنم وساقني معهم ويوحي إليّ بكلام لا أفهمه، فأتكلّم بما أعرف من اللّغات فلا يفهم عني، وقد صار عليَّ شعر عظيم، وأظنه لما رآني على الصُّورة عافتني نفسه، وكان ذلك سبب تأخير أكلي، ولم أزل معه في تلك الحالة عشرة أيام يفعل كل يوم مثل ما يفعل قبله، ولا يمضي يوم إلاّ ويصطاد فيه الطَّير والطيرين فان حصل له من الطيور ما يشبعه لم يأكل شيئاً من الغنم، وان اقتصرت الطيور أكل شاة، وصرتُ أعاونه في وقيد النار وجمع الحطب، وأخدمه وأدبر الحيلة لنفسي، إلى أن مضى لي عنده شهران، وصلح جسمي ورأيت في وجهه

آثار السرور، وفهمت انه عزم على أكلي، وكان يأخذ من شجر في الجزيرة له ثمر ينقعه في الماء، ثم يصفيه ويشربه فيسكر طول ليلته حتى لا يعقل، وكنتُ أرى في تلك الجزيرة طيوراً كباراً كالفيل والجاموس وأكبر وأصغر، ومنها شيء قد أكل بعض غنمه، وانّما يبيت هو وغنمه في تلك الحظيرة خوفاً من تلك الطيور، لأنها بين شجر كبار، وقد جعل تحت الشجر مثل السراديب من وثاقة ما قد عمل، والطير يفزع أن ينزل إلى هناك فيتعوق في الأشجار، فلمّا كان في ليلة من الليالي صبرت حتى سكر ونام، فقمت وتعلقت بشجرة ودلّيت غصن من أغصانها إلى الأرض ومضيت على وجهي أطلب صحراء، قد كنت أشرفت عليها من تلك الشَّجرة، فلم أزل أمشي إلى الصَّباح، ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعي خشبة قد اعمدتُها، وعملت على أنه إن لحقني ضربت رأسه، فإمّا أن أدافع عن نفسي وإمّا أن يقتلني ـ فالموت لابدّ منه، فمكثت يومي في شجرة فلم أره، وقد كنت أخذت معي قطعة من اللَّحم فلمّا أمسيت أكلتُها ونزلت فمشيت ليلتي إلى الصّباح، فوجدت نَفْسي في صحراء وفيها أشجار متفرّقة، فمشيت وما أرى أحداً إلاّ الطيور ووحشاً لا أعرفها، وحيات، ورأيت ماء عذباً، فأقمت بمكاني، وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز، فآكل وأشرب والطّيور تطوف بالغوطة، فعاينت طيراً منها فأعددت شيئاً من قشور الشجر مثل الحبال، ولم أزل أرصد ذلك الطائر حتى سقط يرعى، ودرت من خلفه فتعلّقت بساقه وهو مشغول يرعى، فشددت نفسي، فلّما فرغ من أكله شرب ماء وتحلّق في الهواء، فأشرفنا على البحر فاستبسلت للموت على أيِ حال

كان لا محالة، فانحط على جبل في الجزيرة فحللت نفسي من ساقه، وأنا ضعيف فجعلت أجر نفسي خوفاً منه، ونزلت من الجبل فتعَلَّقت بشجرة وأخفيت شخصي فيها، فلما أصبحت رأيت دخانا، فعلمت أن الدخان مع النَّاس فنزلت أمشي إلى ناحية الدخان، فما مَشَيْت قليلاً حتى استقبلني جماعة فأخذوني وكَلَّموني كلاما لم أعرفه، فحملوني إلى القرية فأدخلوني إلى منزل وحبسوني مع ثمانية أنفس، فسألوني عن خبري فحدثتهم وسألتهم، فخبروني أنهم أهل مركب فلان، وكان قد خرج من (الصنف) إلى (الزابج) فوقع عليهم الخبّ فتخلصوا في قارب المركب نحو عشرين رجلاً فوقعوا إلى هذه الجزيرة، فأخذهم قوم فاقتسموهم فأكلوا منهم جماعة إلى هذا الوقت، فنظرت وإذا مقامي عند صاحب الغنم كان أصلح، فجعلت أتأسى بالقوم وإن كنت أوكل فقد هان عليَّ الموت، وبعضنا يتأسى ببعض، فلما كان من الغد جاءونا بسمسم أو شيء يشبهه، وموز وسمن وعسل وضعوه عندنا، فقالوا: هذا طعامنا منذ وقعنا هاهنا، فأكلنا مقدار ما يمسك رمقنا، ثم جاءوا فنظروا الينا وأخذوا أحسننا حالا في جسده، فودَّعناه وقد كان بعضنا أوصى ببعض، فأخرجوه إلى وسط المنزل ودهنوه من رأسه إلى قدمه بالسَّمن ثم أقعدوه في الشمس مقدار ساعتين، ثم اجتمعوا عليه فذبحوه وقطعوه قطعاً، ونحن نرى ثم شَوَوْه وأكلوه وطبخوا بعضه، وأكلوا بعضه نَيّاً مملوحا، ثم شربوا شراباً وسكروا، فقلت لهم: قوموا فنقتل هؤلاء فانهم سكارى ونخرج على وجوهنا، فإن سلمنا فالحمد لله، وإن هلكنا فهو أسهل من هذا البلاء الذى يحلّ بنا، وإن لحقنا أهل

القرية فهي موتة واحدة، فاختلف رأينا بقية يومنا وأظلّنا الليل وأصبحنا فجاءونا بما نأكل على الرَّسم المعتاد، ومضى أول يوم وثاني يوم وثالث يوم ورابع يوم ونحن على تلك الحالة، فلما كان في اليوم الخامس جاءونا فأخذوا منا واحدا ففعلوا به مثل الأول، فلما سكروا وناموا قمنا إليهم فَذَبَحْناهم بأسرهم وأخذ كل واحد منا سِكِّينا وشيئاً من العسل والسَّمن والسّمسم، فلما أظلمت الدنيا خرجنا من المنزل، وقد كنا ميزنا بالنهار فمشينا نطلب ساحل البحر من جانب آخر لا من شط القرية، ودخلنا غوطة فتعَلَّقنا بالشَّجر، ونحن سبعة أو ثمانية[1]، خوفاً من القوم، فلما جَنَّ الليل نزلنا وَمَشَيْنا ونحن نأخذ الطريق على الكواكب وأخذنا نمشي على السَّاحل يومنا، ثم أمنّا القوم، فكنّا الآن نمشي ونَسْتريح ونأكل من ثمار الغيط، وهي كثيرة الموز زمانا طويلا إلى أن وقعنا في غوطة حسنة وفيها ماء عذب طيب، فعزمنا على المقام بها أبداً إلى أن يقع الينا مركب أو نموت فيها، فمات منّا ثلاثة، وبقينا أربعة فبينما نحن في بعض الأيام نمشي، وإذا بقارب خلق قد قذف به الموج، وفيه جماعة موتى قد تقطعوا، والقارب جانح في الطين والموج يَضْربه وهو مطروح، فاحتلنا في رميهم إلى البحر وغسلنا القارب وأخذنا معَنَا طينا من طين الجزيرة مثل الغرى، وأصلحنا فيه دَقَلاً من الشجر، وسوَّينا حبالاً من خوص النارجيل وشراعاً ليفاً، وملأنا بطن القارب من النَّارجيل والفاكهة وملأنا معنا ماء، وبعضنا يدري سفر البحر، وسرنا نحو خَمْسة عشر يوماً ووقعنا بقرية من قرى الصّنف بعد أهوال وعجائب مرّت بنا،

(1) قد يكون الشك في العدد من المؤلف بزرك وليس من محدثه، كما رأينا في ملاحظة سابقة للمؤلف.

وسرنا من تلك القرية إلى أن وصلنا (الصنف) وخبّرنا الناس بأخبارنا، فجمعوا لنا زواداً، وخرج كلّ واحد منّا يقصد بلداً.

ورجع إلى البصرة بعد أربعين سنة من غيبته، وقد مات أكثر أهله ووجد لوالده ولدا فأنكره، وقد كانوا لما انقطع خبره قَسّموا ماله، وكان موسراً وحاله حسن، فلم يصل من ماله إلى شيء ثم مات بعد ذلك[1]».

* * *

البرسيلا:

«وكان من رَسْم ملوك (بلاد الذهب) و(الزابج) أن لا يجلس أحد بين أيديهم من المسلمين والغرباء كائنا من كان وسائر أهل ممالكهم إلاّ متربعاً، ويسمَّى ذلك (البرسيلا)، فمن مدّ رجليه أو قعد غير تلك القعدة، فعليه غرامة كَلّة ثقيلة بحسَب ما يملك، فاتفق أن كان عند ملك من ملوكهم يقال له (سرناتا كله)، رجل من النَّواخذة، يقال له: جهود كوتاه، له موضع ومحل. وكان شيخاً مسناً، وجلس بين يديه فطال عليه الأمر ولم يقم (سرناتا)، وكانوا في حديث لهم، فأخذ جهود كوتاه يحدّثهم بحديث آخر، فأدخل في حديثه ذكر الكنعد[2]، فقال: وعندنا بعُمان سمك يقال له الكنعد تكون الواحدة كذا ومدّ رجله وقبض على نِصْف فخذه، ومنه ما يكون مثل هذا، ومدّ الرجل الأخرى وقبض على حقوه. فقال لوزيره: إن لهذا الرّجل سبباً، فإنّا كنّا في حديث

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 180—190.

(2) الكنعد: سمك مدبب الفم أسطواني الجسم.

وخرج منه إلى حديث السَّمك فما السبب في ذلك. فقال: أيها الملك هذا رجل شَيْخ قد أسن وضعف، ولا يحتمل أن يجلس هكذا، فلمّا تعب جعل لاستراحته سَبَباً ووجها. فقال: الصَّواب أن نرفع هذا الرسم عن المسلمين الغرباء خاصة، فرفع عنهم، فهو إلى اليوم رسم أن يجلس المسلمون بين أيديهم كما يشتهون، ويجلس غيرهم على الرسم الأوّل، برسيلا فإن غيّر جلسته كانت عليه غرامة[1]».

* * *

(البرسيلا): أي التربيعة في الجلوس، مازالت تمارس في الشرق الأوصى وحتى عند بعض القبائل العربية، فهي سمة احترام المتربّع لشيخ القبيلة. هي شائعة عند اليابانيين، حتى بين أفراد العائلة الواحدة.

وصول وزغة من عُمان إلى سندابور:

«وبالهند كَهَنة وسحرة أمرهم مشهود، وقد ذكرت بعض ذلك في هذا الجزء، وحدّثني أبو يوسف بن مسلم قال: حدّثني أبو بكر الفسوي بـ(صَيْمور) قال: حدّثني موسى الصندابوريّ، قال: كنت عند صاحب (صندابور) يوماً ما أتحدث إذ ضحك. فقال: أتدري لم ضحكتُ. قلت: لا. فقال: على الحائط وزغه، وتقول الوزغة السَّاعة يجيء ضَيْف غريب.

قال: فعجبت من حماقته وأردت الانصراف بعد ساعة. فقال لا

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 154–155.

تبرح حتى تنظر آخر أمر هذه. قال: فإنا لفي حديثنا إذ دخل بعض أصحابه. فقال: وافى الخور من عُمان مركب، ثم لم نلبث إلاّ ساعة حتى دخل جماعة ومعهم أقفاص فيها أسقاط، وقماش، ومَاوَرْد[1]، ففتح منها قفص فيه مَاوَرْد، فقفزت منه وزغة كبيرة، وصعدت إلى الحائط تعدو إلى الوزغة الأولى، فصارت الوزغة وزغتين وأنا أرى[2]».

* * *

إحدى أساطير الهند، فالهند – كما ذكرنا – بلاد الأساطير.

حكاية امرأة:

«ومن طريف الأخبار ما حدثني به بعض أصحابنا. قال: ركبت في سفينة من (الأبلة) أريد (بيان)[3]. فأخذتنا الرياح والأمواج، وزاد الأمر علينا حتى نزعنا ثيابنا. ولم يكن عندنا شك في أنّا تالفون. وكان في السفينة معنا امرأة معها صبي، وكانت ساكتة قبل ذلك. فلما اشتد بنا الأمر أخذت ترقصّ الصبي وتضحك، ولم يكن فينا فضل لخطابها، لأنّا يأسنا من الحياة. فلما صرنا في الشط، وأمنا الغرق، قلت لها: يا هذه المرأة ما تتقين الله عز وجل! أنت، ترين ما حلّ بنا من البلاء، وأنّا قد يأسنا من الحياة، ترقّصين الصبي، وتضحكين، أما خفتي الغرق

(1) (ماورد): ماء الورد.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 157–158.

(3) يحتمل أن تكون (بوبيان) الكويتية.

كما خفنا؟ فقالت: لو سمعتم حديثي لتعجبتم، وما أنكرتم عليّ صبري وتهاوني بالغرق. قلنا لها: حدثينا. فقالت: أنا امرأة من أهل (الأبلة) وكان لوالدي صديق من بانانيّة المراكب المختلفة من عُمان إلى (البصرة). وكان إذا ورد المركب الذي هو فيه من عُمان نزل إلينا، وأقام عندنا أياماً، وأهدى إلينا، وإذا أراد الخروج فعلنا مثل ذلك، وأهدينا إليه ما يمكننا.

وكان رجلاً مستوراً، فزوجني أبي به، وما مضت غير ثلاث سنين حتى توفي أبي فقال لي: قومي حتى أحملك إلى عُمان، فإن لي بها والدة وأهلاً، فخرجت معه إلى عُمان، وكنت مع أهله بها مقدار أربع سنين، وهو يختلف بين عُمان والبصرة. ثم توفي بعُمان، بعد أن ولدت هذا الصبي بخمسة أشهر. فلما قضيت العدة، لم يطب لي المقام بعُمان، لأن مقامي إنما كان بسببه. فقلت لوالدته وأهله: أريد أن أرجع إلى أهلي بالأبلة فقالوا لي: إن أقمت عندنا قاسمناك حياتنا، فليس لنا في الدنيا غير هذا الصبي، وسألوني فأبيت. فلما عزمت على الخروج اشتريت سريراً وثيقاً من خيزران، وجعلت فيه ثياباً كنت قد جمعتها لي وللصبي، وذخيرة كنت قد ادخرتها، وغطيت ذلك كله، وأحكمته، وجعلت الصبي فوقه وخرجت في مركب يريد البصرة. فبينما نحن إذ أخذنا الخب، فانكسر المركب نصف الليل، وتفرقت الركاب والبانانية في البحر فلم ير أحد منا صاحبه، وتعلقت بلوح من الألواح، فضبطته ولم أزل عليه إلى الغد نصف النهار، حتى رآنا صاحب مركب، فجمع

من رأس الماء[1] نحو عشرة أنفس وكنت أنا أحدهم، وحملنا إلى مركبه، ونكسوا رؤوسنا حتى قذفنا الماء الذي شربناه من البحر، وسقونا أدوية وعالجونا إلى الغداة من الغد، حتى رجعت نفوسنا إلينا، وأنا قد نسيت ابني لِمَا أنا فيه، وزال الفكر فيه عن قلبي. فلما كان من الغد قال صاحب المركب - وأنا أسمع - انظروا هذه المرأة ألها لبَن. فإن هذا الصبي الذي وجدناه يموت، فقالوا لي ألك لبن؟ فذكرت الصبي فقلت: قد كان لي لبن، ومع ما مرّ بي فما أعلم أنه قد بقي منه شيئاً. فقالوا: أبصري هذا الصبي قبل أن يموت. فجاءوني بالسرير وفيه الصبي بحاله ما فتحوه ولا أخذوا منه شيئاً فحالما رأيته وقعت على وجهي وصرخت وغشي عليّ. فرشوا عليّ الماء. وقالوا: ماتت[2]؟ فأفقت بعد ساعة وأقبلت أبكي وأضم الصبي. فقالوا: يا هذه المرأة ما لك؟ فقلت: هذا الصبي ابني. فقام صاحب المركب عليّ وقال: هذا ابنك فأي شيء الذي تحته، فأقبلت أعدّ عليهم ما تحته، وجعلوا يخرجون شيئاً بعد شيء كأنه إنما وضع الساعة، فما منهم أحد إلاّ بكى بكاءً عظيماً، وحمدوا الله وشكروه.

فأنا غرقت في ذلك البحر، وفرق بيني وبين ابني، فجمع الله بيني وبينه على تلك الصورة أخاف من هذه الرحلة وإن كتب الله عليّ الغرق لم ينفعني الحذر[3].

---

(1) «رأس الماء»: سطح الماء.

(2) في الأصل: ما أنت؟ تحريف.

(3) بزرك، عجائب الهند، ص 137-140.

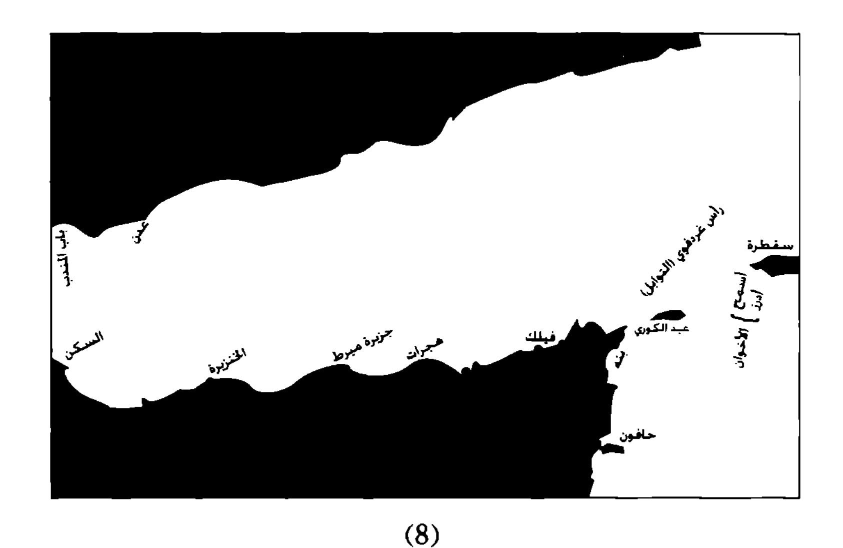
ليس في هذه الحكاية شيء عجيب غير عدم الخوف من الغرق في البحر، بعد السلامة من غرق حدث قبله.

بحر بربرا

«وأجمع البحريون على أن بحر (بربرا)، وهو سبعمائة فرسخ، وهو في الطريق إلى بلاد الزنج، من أعظم البحار خطراً، وللزنج في هذا البحر جزائر عظيمة من جانب واحد، والماء فيه – على ما يقال – يجري جرياناً شديداً، والمراكب تقطعه في سبعة أيام، وفي ستة أيام، وإذا وقع المركب إلى (بربرا)، أخذوا أهل المركب وخصوهم. وإذا قصد التجار (بربرا) كان مع الواحد منهم – بحسب مقداره وكثرة ماله – جماعة يخفرونه، لئلا يأخذه بعضهم فيخصيه. والواحد منهم يجمع بيض من يخصيه ويحفظها. فإذا تفاخروا أخروجوا ما عندهم لتقع الرهبة فيه. لأن الشجاعة هي أن يخصي الرجل منهم الرجل من الغرباء[1]».

* * *

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 113–114.



(8)

(بحر بربره)

«بحر بربرا»: هو المعروف أيضاً بالخليج البربري، وخليج عدن حالياً وقد عرف بعظم أمواجه عند البحارة والرحالة العرب، وقديماً كان أهل ساحل (بربره) يخصون كل من يقع بأيديهم من أعدائهم، أو ممن يمشي من الغرباء بدون خفير في أرضهم.

فيلة تجلب حوائج أربابها من البقالة:

«وأخبرني بعضهم: أنّه شاهد ببعض بلدان الهند فيلة تتصرّف في حوائج أربابها، وأنّ الفيل يُدفع إليه الوعاء الذي يَشْتري فيه الحوائج وفيه الوَدَع، وهو نَقْد القوم وأنموذج الحاجة كائنا ما كانت، فيكون

معه في الوعاء شيء من ذلك الجنس والنقد، ويمضي إلى البَقّال، فإذا رآه البقال نزل من جميع شغله ولو كان على رأسه من يشتري منه كائنا من كان، وأخذ الوعاء من الفيل فعدّ الودع الذي فيه، ونظر ما يريد بأنموذج متاعه، ودفع إليه أجود ما عنده من ذلك النوع بأرخص سعر ويستزيده فيزيده وربّما عَدَّ البائع الودع فغلط فيه فيشوّشه الفيل بخرطومه، فيعيدّ البقال عدّه ثانية.

ويمضي الفيل بما اشتراه، فربّما استقلّه صاحبه فيضربه، فيعود إلى البقال فيشوّش متاعه ويخلط بعضه ببعض، فإمّا أن يزيده أو يردّ عليه الودع.

وأن الفيل الذي هذه صورته يكنس، ويرش، ويدق الأرز بمدقة، يأخذها بخرطومه فيدق، ورجل يجمع عليه الأرز ويطحن الأرز ويستقي الماء، وذلك أنه يأخذ الوعاء الذي يستقي فيه الماء وفي الوعاء حبل مشدود يُدخل خرطومه فيه ويحمله.

ويَقْضي جميع الحوائج، ويركبه صاحبه في حوائجه البعيدة، ويركبه الصبيّ ويمضي عليه إلى الصَّحراء فيقطع الحشيش وورق الشجر بخرطومه وَيْدفعه إلى الصبيّ فيجمعه في وعاء معه ويحمله فيكون ذلك طعامه، وأنّه إذا كان على هذه الصفة يبلغ [ثمنه] مالاً عظيماً وقيل عشرة آلاف درهم[1]».

مايزال الفيل المدرب يقوم بمثل هذه الأعمال، في الهند، والشرق

---

(1) بزرك، عجائب الهند، ص 164–165.

الأقصى، حتى الآن، ما عدا جلب حوائج أربابها من البقالات، فقد توقف أو منع بسبب ما يحدثه الفيل من التشويش في البقالة.

الدرة اليتيمة:

«وحدثني غير واحد من البحريين بأمر الدرة المعروفة باليتمية – وإنما سُميت باليتيمة، لأنه لم يوجد لها أخت في الدنيا – وأجودهم شرحاً للقصة: حدّث أنه كان بعُمان رجل يقال له مسلّم بن بشر، وكان رجلاً مستوراً، جميل الطريقة، وكان ممن يجهّز الغواصة في طلب اللؤلؤ. وكانت بيده بضاعة فلم يزل يجهز الرجال للغوص، ولا يرجع إليه فائدة، حتى ذهب جميع ما كان يملكه. ولم يبق له حيلة، ولا ذخيرة، ولا ثوب، ولا شيء يجوز ببيعه إلاّ خلخال بمائة دينار لزوجته فقال لها: أقرضيني هذا الخلخال لأجهّز به. فقالت له: يا هذا الرجل. لم تبق لنا ذخيرة، ولا شيئاً نعول عليه، وقد هلكنا، وافتقرنا، فلأن نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن تتلفه في البحر. فتلطف بها، وأخذ الخلخال وصرفه، وجهّز بجميعه الرجال إلى الغوص، وخرج معهم. ومن شروط الغوص أن يقيم الغواصة فيه شهرين لا غير. وعلى هذا يتشارطون. فأقاموا يغوصون تسعة وخمسين يوماً، ويخرجون الصدف ويفتحونه فلا يحصل لهم شيء. فلما كان في يوم الستين غاصوا على اسم إبليس لعنه الله فوجودا فيما أخرجوه صدفة، استخرجوا منها حبّة لها مقدار كبير، لعل ثمنها يوفي بجميع ما كان يملكه مسلّم منذ كان، وإلى وقته.

فقالوا: هذا وجدنا على اسم إبليس لعنه الله، فأخذها وسحقها ورمى بها في البحر، فقالوا له: يا هذا الرجل. لِمَ فعلت أنت هذا؟ قد افتقرت، وهلكت ولم يبق لك شيء. يقع بيدك مثل هذه الحبة التي لعلها تساوي آلاف الدنانير فتسحقها. قال: سبحانه الله. كيف استحل أن انتفع بمال استخرج على اسم ابليس، وأنا أعلم أن الله تبارك وتعالى لا يبارك فيها. وإنما وقعت هذه الحبة بأيدينا ليختبرنا الله تعالى بها، ويعلم من يعرف خبرها اعتقادي. ولئن انتفعت بها ليقتدين كل واحد بي، فلا يغوصون إلا على اسم إبليس لعنه الله، فإثم ذلك يعظم على كل فائدة، وإن عظمت. والله لو كان مكانها كل لؤلؤ في البحر ما تلبست به. امضوا فغوصوا وقولوا: باسم الله وببركة الله تعالى.

قال: فغاصوا على ما رسم لهم. فما صلى صلاة المغرب من ذلك اليوم، وهو آخر يوم من الستين حتى حصل بيده درّتان، إحداهما اليتيمة، والأخرى دونها بكثير فحملهما إلى الرشيد[1] وباع اليتمية بسبعين ألف درهم، والصغرى بثلاثين ألف درهم. وانصرف إلى عُمان بمائة ألف، فبنى بها داراً عظيمة، واشترى ضياعاً واعتقر عقاراً. وداره معروفة بعُمان. فهذا ما كان من خبر الدرة اليتيمة[2]».

* * *

ليس في هذه الحكاية ما ينكره العقل، على المسلم المؤمن، غير استخراج اللؤلؤ باسم إبليس.

---

(1) «الرشيد»: هو الخليفة العباسي هارون الرشيد.

(2) بزرك، عجائب الهند، ص 134–137.

الخرائط

المحتويات